من الجهل المتبادل إلى الحوار الصادق

تأليف وإعداد

شوكت مقري

إهـــــــداء ٢٠٠٨
دار الكتب و الوثائق القومية
القاهرة

من الجهل المتبادل

إلى الحوار الصادق

اســـــم: من الجهل المتبادل

الكتــــاب: إلى الحوار الصادق

الناشـــر: دار ومكتبة الحرية

٤ش محمد بك عاصم- أول شبرا

أمام مكتبة المحبة

ت: ٢٥٧٨١٠٤٧ - ٢٥٧٨١٠٤٩

فاكس: ٢٥٧٦٢٧٢٨

Email:
alhorriyiea_house@yahoo.com

تـــأليف: شوكت مقري

رقم الإيداع: ١٤٥٩١ / ٢٠٠٨

I.S.B.N: 977 – 6101 - 36 – 4

محتويات الكتاب

المقدمة

يحاول هذا الكتاب أن يُدقق في مزاعم المسيحية والإسلام.

كان هذا التدقيق المتقابل شغلي الشاغل سواء عندما كنت في بلدي (سوريا) أو بعد أن غادرته إلى الخارج. كمسيحي يعيش في مجتمع ذو أغلبية مسلمة، أردتُ أن أستزيد من المعرفة عن الإسلام (الدين الآخر)، وكعربي شعرت بالحاجة إلى أن أعرف أكثر عن العرب الآخرين. لم تكن "عروبتي" أو "إيماني المسيحي" في موضع شك ولكنني كنت أنوي أن أبني جسوراً بين المسيحيين والمسلمين.

على الرغم من وجود المسيحيين والمسلمين سوية لقرون عديدة فإنهم عاشوا منغلقين على ذواتهم خاصة فيما يتعلق بإيمانهم. قد يقول البعض إن الجهل المتبادل كان ثمن التعايش السلمي بدون مشاكل، وبالنسبة للمسيحيين قد يكون ثمن البقاء. لم ترق هذه التسوية لي كمراهق في ذلك الوقت، وكانت الفرصة الحقيقية الأولى لتحدي ذلك عند انتقالي إلى المرحلة الثانوية من الدراسة، حيث تقدمت إلى مُدرّس مادة الدين الإسلامي أسأله أن يسمح لي بحضور دروسه. احتار المُدرس لطلبي حيث كان لكل من الطلاب المسيحيين والمسلمين صفوفهم الخاصة لمادة الدين. وبعد ما تأكد المُدرّس أني أعني حقيقةً ما أقول وافق على حضوري لدروسه. من خلال المناقشات المفتوحة وأحياناً الساخنة ولكن الودودة دائماً اكتشفت أن المسلمين أيضاً يتوقون لزيادة معلوماتهم عن المسيحية. لم تقتصر هذه المناقشات على ساعات التدريس فقط، وبالتدريج أصبح عدد من زملائي المسلمين أصدقاءً مقربين لي. لم يكن قسم منهم قد دخل بيتاً مسيحياً من قبل.

وكان سرورهم كبيراً عندما دُعوا إلى بيت مسيحي للمرة الأولى ودعوني بدورهم لزيارتهم في بيوتهم.

لم تُقلّل مغادرتي لبلدي والوصول إلى أوروبا (فرنسا أولاً ثم بريطانيا) من التزامي بدراسة العلاقات الإسلامية-المسيحية. وهو التزام ينبع من فهمي للإيمان المسيحي في المقام الأول. وبسبب خلفيتي العربية والمسيحية وجدت نفسي في موقع متميز، فلم يكن لديّ أي مشكلة في الاندماج مع الناس خاصة المسلمين الذين كانوا مغتربين مثلي. وفي نفس الوقت كنت ناشطاً في المجتمع المسيحي.

قد يجد بعض المسيحيين أن طريقة تعاملي مع الإسلام تميل كثيراً للاسترضاء وتنحو نحو التوليف ومصطبغة كثيراً بأصلي العربي. وأنا بدلاً من أن أنكر تأثير خلفيتي على تفكيري أعتبر أن ذلك عامل توازن . إن أفكاري المسيحية ليست أكاديمية بحتة ولكنها متجذرة في خبرتي الإنسانية مع المسلمين. سيكون القارئ المسلم محقاً عندما يعتبر أن كوني مسيحياً يجعل هذه الدراسة غير متجردة أو غير محايدة تماماً، ولكني أتساءل هل للتجرد المطلق وجود؟ المسيحيون والمسلمون، ومثلهم أتباع أي دين آخر، لا يمكن أن يكونوا محايدين كلياً عند تعاملهم مع مواضيع تخصّ إيمانهم. كل ما يهم أنه على من يشترك في الحوار بين الديانات أن يحترم الدين الآخر ويكون مستعداً للتعلم وقبول التحديات وأن يكون عادلاً عند تعامله مع تعاليمه.

الموقف الصحيح

يُعلّم القرآن الكريم المسلمين أهمية العدالة عند التعامل مع غير المسلمين، إذ يتوجب عليهم دعوة الناس للإيمان بالله بـ [ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ] النحل١٢٥،

وهذا ينطبق بشكل خاص عندما يجادلون "أهــل الكتــاب" أي اليهود والمسيحيين. وهم يقفون بجانب اليهــود والمســيحيين لأنهم يؤمنون بنفس الإله، كما جاء في القرآن:

[وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّــا الَّــذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ] (العنكبوت ٤٦)

وهكذا نجد القرآن الكريم يحث المسلمين على أخذ الموقف الصحيح عند مُجادلة اليهود والمسيحيين وإلا فعليهم الامتناع عن المجادلة. وهذا واضح في قوله "إلا بالتي هي أحسن" كتعبير عن ذلك. والموقف الذي يتكلم عنه القرآن الكريم يعني إقامة علاقات طيبة مع هؤلاء الناس تقوم على الاحترام والتفاهم المتبادل، والإقرار بأن الله قبل أن يبعث الرسول أظهر كلامه لليهود والمسيحيين في الكتاب المقدس، أي في التوراة والإنجيل. مما يعني أن اليهود والمسيحيين والمسلمين يؤمنون بالله الواحد الذي لا شريك له. كما يتضمن النص القرآني المذكور أعلاه دعوة مشددة للمسلمين للدخول في حوار صادق وحقيقي مع اليهود والمسيحيين. والتحذير الوحيد الوارد هو بشأن الذين أساءوا التصرف تجاه المسلمين بطريقة أو بأخرى. ومع أنه من المشكوك في جدوى الحوار مع الناس المعادين، فأن القرآن لا يستبعد نهائياً إمكانية تحويل عدوٍ ما إلى صديق بأخذ الموقف الإيجابي الصحيح نحوه:

[وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّــهُ وَلِــيٌّ حَمِيمٌ] (فصلت ٣٤) .

إن تعاليم السيد المسيح لا توصي بشكل واضح بالحوار مع أتباع الديانات الأخرى، ولكنه يوضح أسلوب التعامل مع

الآخرين بشكل عام: "عاملوا الآخرين مثلما تريدون أن يعاملوكم. هذه هي خلاصة الشريعة وتعاليم الأنبياء" (متى ٧: ١٢). فيتوجب إذاً على المسيحيين أن يتخذوا موقفاً عادلاً تجاه الإسلام والمسلمين. ويعني هذا بالمفهوم العملي عدم مقارنة مثاليات المسيحية مع واقعيات الإسلام، أو المعتدليين المسيحيين مع المتطرفين المسلمين. إن ذلك ليس بالسهولة التي يبدو بها. ولكي أقلل من صعوبة مخاطر المقارنة غير العادلة بين المسيحية والإسلام تعمدت أن أستند في دراستي لهاتين الديانتين على كتبهما المقدسة بدلاً من واقعهما المخيب للآمال.

إن الكتب المقدسة بحاجة إلى تفسير، وقد سبق تفسيرها بأكثر من طريقة واحدة. وقد حاولت من جانبي تقديم تعاليم الكتاب المقدس حسب الفهم السائد لدى عموم المسيحيين وبشكل أكثر تحديداً لدى المسيحيين الإنجيليين. كذلك حاولت تقديم رسالة القرآن الكريم كما تُفهم من قبل المسلمين أنفسهم وبشكل أكثر تحديداً من قبل المسلمين السنة. واعتمدت بشكل كبير على تفسير الرازي للقرآن لسببين رئيسيين: الأول أن الرازي (٦٠٦/١٢٠٩) [1] ذو مقام كبير لدى المسلمين، ويتفق المسلمون على كونه مرجعاً مهماً لتفسير القرآن الكريم، والثاني أن "التفسير الكبير" للرازي هو شرح رائع وشامل للقرآن الكريم [2]. وقد لاحظت أن كتّاباً مسلمين معاصرين ينهلون كثيراً من شرحه دون الإشادة دوماً بفضله. إن شرح الرازي يمتاز بالمدى الواسع والعقلانية والصرامة والبصيرة

---

[1] يشير هذان الرقمان هنا وفي بقية الكتاب إلى السنة التي توفي فيها المؤلف بحسب التقويم الهجري والتقويم الميلادي على التوالي.

[2] الطبعات الحديثة لهذا التفسير تصدر في ستة عشر مجلداً واثنين وثلاثين جزءاً. في الحواشي المتعلقة بهذا التفسير يشير الرقم الأول إلى رقم المجلد والثاني إلى رقم الجزء.

الروحية. وكثيراً من القضايا التي عالجها قبل ثمانمائة سنة لا تزال هي نفسها التي نحتاج لمعالجتها اليوم. وبما أن الإسلام السني يستند إلى كل من القرآن والحديث (أي تعليم وحياة النبي) استخدمت في هذه الدراسة الحديث والسنة النبوية اللذين لا ينالان الاهتمام اللازم من قبل الكتّاب الغربيين.

يدعو القرآن الكريم المسلمين لاجتناب الجدال العدائي مع المسيحيين، ولكن ذلك لا يعني أن يُحجموا عن نقد معتقدات المسيحيين وممارساتهم أو عن دعوتهم لقبول الرسالة التي جاء بها النبي. على العكس من ذلك تماماً فالإسلام دين تبشيري والدعوة إلى هذا الدين تشمل اليهود والمسيحيين كما تشمل أي إنسان آخر (آل عمران ٢٠). ويستند البُعد التبشيري للإسلام على إيمانهم بأن القرآن هو وحي الله لكل إنسان (الفرقان ١؛ ص ٨٧)، وأن الرسول هو خاتم الأنبياء (الأحزاب ٤٠) أرسله الله إلى جميع الأمم وليس إلى العرب فقط (الأنبياء ١٠٧). وفتحت دعوته عهداً جديداً بإعلانه أن الإسلام هو الدين الوحيد المقبول لدى الله (آل عمران ١٩، ٨٥). لهذا فإن القضية لا تكمن في مبدأ التبشير بالإسلام بل بطريقة التبشير. إن المسلمين عباد الله وشهوده (البقرة ١٤٣؛ الحج ٧٨؛ الأحزاب ٤٥)، وإن مجادلة أهل الكتاب "بالتي هي أحسن" تُشكل إحدى أهم فرائضهم. على ضوء هذا فإنه من الطبيعي أن يبذل المسلمون كل ما يمكنهم لإقناع اليهود والمسيحيين باعتناق الإسلام. لكن القرآن يؤكد أن الله هو الذي يهدي الناس بإظهار الحقيقة لهم (الأعراف ٤٣؛ الرعد ٣١؛ القصص ٥٦)، ولهذا لا يجوز أن يُرغم أحد على اعتناق الإسلام: [لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ] (البقرة ٢٥٦). وهذا ينطبق بشكل أكبر على اليهود والمسيحيين الذين يُفرد الإسلام لهم

مكانة خاصة لكونهم أتباع ديانتين توحيديتين تستندان إلى الوحي الإلهي.

وللمسيحية معتقدات مشابهة لمعتقدات الإسلام فيما يتعلق بتمام الوحي الإلهي، وبالتوجه العالمي لهذا الوحي والدور الفريد ليسوع المسيح. السيد المسيح هو الحامل النهائي لرسالة الله وهو الذي جاء بالوحي الإلهي إلى الكمال (متى ٢١: ٣٣-٣٩؛ عبرانيين١: ١-٢)[3]. والإنجيل[4] هو"البشارة" عن محبة الله للعالم أجمع (يوحنا ٣: ١٦). لهذا لابدّ أن يسمع كل إنسانٍ هذه الرسالة، وقد جعل السيد المسيح المسيحيين تلاميذه شهوداً له وكلفهم بنقل البشارة إلى كل الشعوب (متى ٢٨: ١٩-٢٠؛ أعمال ١: ٨). قال المسيح عن نفسه أنه الطريق الوحيد إلى الله (يوحنا ١٤: ٦) كما جاء في الإنجيل بأنه المُخلص الوحيد للإنسان (أعمال ٤: ١٢)[5]. لهذا يجد المسيحيون أنفسهم في وضع مشابه لوضع المسلمين، فالجدال مع المسلمين هو جزء لا يتجزأ من رسالتهم. كل من له إيمان راسخ، سواء كان هذا الإيمان دينياً أم دنيوياً، سيحاول أن ينشر هذا الإيمان ويُقنع الآخرين به. لا يشذ الحوار المسيحي- الإسلامي عن ذلك. إن المسيحيين مدعوون لعرض قضيتهم بحماس وتواضع في آن معاً:

---

[3] أللهُ، بَعْدَ مَا كَلَّمَ الآبَاءَ بِالأَنْبِيَاءِ قَدِيماً، بِأَنْوَاعٍ وَطُرُقٍ كَثِيرَةٍ، ٢ كَلَّمَنَا فِي هَذِهِ الأَيَّامِ الأَخِيرَةِ فِي ابْنِهِ - الَّذِي جَعَلَهُ وَارِثاً لِكُلِّ شَيْءٍ، الَّذِي بِهِ أَيْضاً عَمِلَ الْعَالَمِينَ.

[4] كلمة "إنجيل" معرّبة عن كلمة "ايفانكيليون" اليونانية والتي تعني "البشارة". في هذا الكتاب استعملت كلمة "إنجيل" بمعنيين متميزين:

[5] "وليس بأحد غيره الخلاص لأن ليس اسم آخر تحت السماء قد أُعطي بين الناس به ينبغي أن نخلُص"

[بَلْ قَدِّسُوا الرَّبَّ الإِلَهَ فِي قُلُوبِكُمْ، مُسْتَعِدِّينَ دَائِماً لِمُجَاوَبَةِ كُلِّ مَنْ يَسْأَلُكُمْ عَنْ سَبَبِ الرَّجَاءِ الَّذِي فِيكُمْ بِوَدَاعَةٍ وَخَوْفٍ]. (١ بطرس ٣: ١٥)

الحوار الصادق

في الوقت الذي يشارك فيه المسيحيون والمسلمون الإيمان بالله الواحد فإنهم يتقاسمون المسؤولية في الإساءة إلى هذا الإيمان أمام العالم على نطاق واسع. لقد تواجهوا في نزاعات عديدة وبذلك أسهموا في تنامي الشكوك لدى الكثير من الناس فيما يتعلق بجدوى أي دين من الديانات. وإنها لحقيقة أن النقاش بين المسيحيين والمسلمين تحول مراراً عديدة إلى جدلٍ يحاول فيه أحد الأطراف أن يسخر من الطرف الآخر أو يتهجم عليه ويهزمه. لهذه الأسباب أخذ الكثيرون يعتقدون بأن على المسيحيين والمسلمين أن يمتنعوا عن الدخول في نقاشات دينية ولاهوتية، وأن يلتزموا بالحوار فحسب فيما بينهم.

يفهم الكثير من مشجعي الحوار المسيحي-الإسلامي في الدول الغربية، وخاصة المسيحيين منهم، أن الحوار هو محاولة لتبادل الرأي دون أي جهد لمحاولة إقناع الآخر. ومن جانبي أشارك الرغبة في تشجيع المسيحيين والمسلمين على معرفة بعضهم البعض بشكل أفضل، وإقامة علاقات جديدة مبنية على الثقة والاحترام المتبادل لأعراف وتاريخ كل منهم. ولكن هذا لا يمثل كل ما يعنيه الحوار الصادق. إذ هل يستطيع المسيحيون والمسلمون الذين يؤمنون حقاً بكتبهم المقدسة أن يتجنبوا الدفاع عن هذا الإيمان خلال الحوار؟ وفي الوقت الذي لا يُعتبر فيه تغيير المعتقد الهدف المباشر أو الوحيد للحوار، فإنه يجب الإقرار بأن هذا التغيير أحد النتائج المحتملة للحوار. لأنه على أي أساس يُستبعد الاحتمال بأن

المعلومات الجديدة قد تؤدي إلى تبني موقف جديد أو تغيير المُعتقد؟ ألا يعني ذلك رفض حق أساسي من حقوق الإنسان؟ ألا يوجد فروق أساسية بين المسيحية والإسلام تبرّر اتخاذ موقف جديد؟ أو أننا نفترض أن المسيحيين والمسلمين غير قادرين على الانخراط في حوار صادق، جديّ ومحترم لرأي الآخر؟

قد يُطرح أحياناً بأن على المسيحيين والمسلمين أن يتخلوا عن مفهوم تغيير المعتقد كلياً لكي يكونوا فعلاً متسامحين مع بعضهم البعض. ولكن مفهومي للتسامح يختلف عن ذلك واعتبره شرطاً أساسياً للعلاقات بين المسيحيين والمسلمين. فالتسامح لا يعني أبداً أن نُنكر أو نُقلل من الفروقات بين المسيحية والإسلام. وعلى العكس من ذلك ففي رأي لن يكون المسيحيون والمسلمون متسامحين حقاً حتى يتقبّلوا فكرة أن الحوار أو النقاش قد يؤدي إلى تغيير الدين إما إلى المسيحية أو إلى الإسلام: التسامح الحقيقي هو قبول الآخر كما هو، وليس بتجاهل المسافة التي تفصل بيننا ولكن بقياسها بدقة والإدراك بأن كل من يرغب في العبور إلى الطرف الآخر له الحق والحرية في ذلك.

إني أساند من كل قلبي الحوار المسيحي- الإسلامي، وأود أن أرى العديد من الناس منخرطين في حوار عادل ومثمر على كافة المستويات وليس على مستوى المؤسسات فقط.. على ألا يُنظر إلي الحوار والتبشير كمفهومين متضادين بل على العكس تماماً. فالعمل التبشيري الذي يتم بدون أسلوب الحوار يكون عقيماً ومتعالياً وضاراً، كما أن الحوار من دون بعد تبشيري هو ممارسة أكاديمية فقط يمكن أن تكون عقلانية وسطحية ومتزلفة في آن واحد. الحوار التبشيري هو عملية تربوية ذات معنى وهدف. يتعلم الناس من خلاله التوفيق بين

شيئين غالباً ما يفصلهما الناس الواحد عن الآخر: الإيمان والتواضع، الحقيقة والمحبة، الدين والحرية، الإيمان بالحياة بعد الموت والإلتزام بالحياة قبل الموت.

إن الحوار المسيحي- الإسلامي يعود إلى عصر النبي. فقد شارك الرسول في عدة نقاشات دينية مع المسيحيين. ففي سنة ٦٣٠ مثلاً جاء إلى المدينة المنورة وفد من نجران (جنوب الجزيرة العربية) وكان لهم نقاش مهم معه حول التعايش بين المجتمع المسيحي والمجتمع الإسلامي.

ويقوم هذا الكتاب، من جانبه بالمقارنة بين الإيمان المسيحي والإيمان الإسلامي، وهو إيمان محوره الوحي الإلهي المُبلّغ لنا في الكتب المقدسة. مما يجعل من الضروري النظر في الإنجيل والقرآن مع التركيز بشكل خاص على إمكانية الوثوق بالتوراة والإنجيل من خلال دراستنا لموضوع التحريف. فبما أن المسيحية والإسلام ديانتان توحيديتان تستندان إلى وحي إلهي مكتوب، لابدّ وأن يتطرق النقاش بين المسيحيين والمسلمين إلى دور الكتب المقدسة في كلا الديانتين. إلا أن العامل الديني لا يُمثل العامل الوحيد الذي يُحدد شكل العلاقة بين المسيحيين والمسلمين، فالتاريخ يلعب أيضاً دوراً مهماً في ذلك. ولقد كان للنزاعات بين شعوبهم وما زالت تأثير سلبي على العلاقات بينهم. فالحروب الصليبية والاستعمار مثلا ساهما في تقويض هذه العلاقات، الأمر الذي جعل الحوار الصادق والبناء أكثر صعوبة بغير شك. وإني كمسيحي عربي عاش في البلاد الإسلامية والغربية أدرك كل الإدراك مدى تأثر العلاقات المسيحية- الإسلامية بالعوامل التاريخية.

والسؤال الذي يطرحه ضمنياً موضوع الحوار بين الديانتين هو: هل يمكن التوفيق بين الإيمان الراسخ ودراسة الأفكار البديلة أو بين القناعة الشخصية والإنفتاح على الآخر؟ أعتقد أن جواب أغلب المسيحيين والمسلمين سيكون بالإيجاب. الحوار يسمح لنا فحص وقياس مدى انفتاح أذهاننا وقلوبنا على الناس ومدى استعدادنا للتفاعل مع آرائهم ومعتقداتهم. ويستدعي ذلك الالتزام بالحق والمحبة على حدّ سواء. فالحوار بين المسيحيين والمسلمين هو عمل جدّي للغاية، هدفه الأول البحث عن الحقيقة والتأكد منها: حقيقة الله وحقيقة البشر وحقيقة العالم الذي نعيش فيه. قد يؤدي الجهل أو التجاهل إلى اتفاقات سطحية فيما بيننا، بينما يؤدي النقاش الحاد والمتحدي إلى الخصومة التي تعرقل التوصل إلى الحقيقة. المحبة التي تظهر من خلال العلاقات السلمية الصادقة والودية هي الوحيدة التي تخلق الظروف الضرورية لجعل الحقيقة تنبثق والفهم المتبادل ينمو فيما بيننا.

إني أصلّي أن يؤدي هذا النوع من الحوار إلى تمتعنا نحن المسيحيين والمسلمين بعلاقات أفضل فيما بيننا. فنتخلّص من أحكامنا المسبقة ومن جهلنا المتبادل ونصل إلى فهم أفضل لإيمان الآخرين ولإيماننا أيضاً. وفوق ذلك كله قد نكتشف أن الله يكلمنا ولديه ما يقوله لنا ونحصل على فهم أفضل عن ما هو. لهذا يجب على كل منا الدخول في علاقات صادقة إن أردنا أن نعيش حسب تعاليم الكتب المقدسة لكلٍ منا.

إننا مدعوون أن نتحدى بعضنا البعض حول أمور إيماننا ولكن أن نقوم بذلك بسلام وصدق واحترام. ليس هذا بالأمر السهل. ستكون معتقداتنا تحت التمحيص الدقيق وسيتم فحص إمكانية ارتباط بعضنا ببعض كإخوة في الإنسانية. باختصار إن الحوار المسيحي- الإسلامي يعني أن نكون على استعداد

لامتحان بنّاء لعقيدتي الديانتين. فهـل سـيرتفع المسـيحيون والمسلمون إلى هذا المستوى من الحوار؟ هل سنكون قادرين على قول الحقيقة كما نراها بمحبة (أفسـس ٤: ١٥)[٦]؟ هـل سنكرّم الله بإنجاز مهمتنا هذه بالتي هي أحسـن؟ هـذا هـو موضوع هذا الكتاب. فليسامحني الله على النواقص التي فيـه ويستخدمه كما يحسن له.

✍ شوكت مقرّي

---

[٦] "بل صادقين في المحبة ننمو في كل شيء إلى ذاك الذي هو الرأس المسيح"

الفصل الأول

الكتاب المقدس والقرآن الكريم

يعتقد كل من المسيحيين والمسلمين بأنهم قد تلقّوا وحياً إلهياً وأن هذا الوحي تحتويه الكتب المقدسة: الإنجيل والقرآن. وتبعاً لذلك يُخيل للمرء أن الإنجيل يحتل مكانة في المسيحية كالتي يحتلها القرآن في الإسلام. ولكن الأمر ليس بهذه البساطة. هناك تشابهات مدهشة بين الكتابين ولكن هناك أيضاً اختلافات مهمة. هذه الاختلافات هي أحد أسباب الصعوبات التي تواجه المسيحيين عند قراءتهم للقرآن أو المسلمين عند قراءتهم للإنجيل. قد يتوقف البعض عن القراءة بسبب هذه الصعوبات، وقد ينزلق آخرون إلى اعتبار تلك الاختلافات دلالة على ضحالة أحد الكتابين بالمقارنة بالآخر. ولكن كلاً من الإنجيل والقرآن يستحق تعمقاً أكثر من ذلك. لقد عزز هذان الكتابان لقرون عديدة إيمان ملايين الرجال والنساء.

ليس من الضروري أن نوافق مسبقاً على فحوى الكتاب المقدس أو القرآن الكريم عند قراءتهما، إلا أننا مع ذلك نحتاج لمحاولة فهم طبيعتهما الخاصة ومحتواهما المميز. لهذا سنقوم هنا بدراسة هذه الكتب مركزين اهتمامنا على أربعة سمات للوحي الإلهي: طبيعة الوحي (ما الذي أوحي)، طريقة الوحي (كيف تم الوحي)، نقل الوحي (كيف تم إيصال الوحي إلى الآخرين) وأخيرا رسالة الوحي (عما يدور الوحي).

طبيعة الوحي

يؤمن المسيحيون والمسلمون بإله خالق مهيمن على كل شيء، وهو مختلف جوهرياً ومنفصل عن جميع مخلوقاته. خلق الله الجنس البشري وعيننا كممثلين أو خلفاءً له على الأرض: [إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً] (البقرة ٣٠). أرسل أنبياءً لكي نعرف كلمته ونتعلم إرادته. في الإسلام يظهر وحي الله أولاً في خليقته، فالطبيعة تحوي العديد من الآيات التي تشير إلى الخالق (البقرة ١٦٤؛ آل عمران ١٩٠؛ يونس ٥-٦): [إِنَّ فِي اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ] (يونس ٦)

يُعلّم القرآن أن وحي الله مكتوب على لوح سماوي يُعرف باللوح المحفوظ حيث يوجد كلام الله (الحجّ ٦٥). يُسمى هذا اللوح الأصلي "أم الكتاب" وقد أُعلن للإنسانية في عدة مراحل من خلال كتاب سماوي. يذكر القرآن أربع مجموعات مستقلة لما أوحي به بشكل كتاب:

١- التوراة: أوحي بها لموسى (آل عمران ٩٣؛ الأنعام ١٥٤) وهي [نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ] (الأنعام ٩١).

٢- الزبور: أوحي به لداوود (النساء ١٦٣؛ الإسراء ٥٥؛ الأنبياء ١٠٥).

٣- الإنجيل: أوحي به لعيسى وهو أيضاً نور وهدى و مصدقٌ للتوراة (المائدة ٤٦).

٤- القرآن: أوحي به لمحمد وهو "هدى ورحمة" (الأنعام ١٥٧).

جاء القرآن ليصدق ما في التوراة والإنجيل (البقرة ٤١؛ آل عمران ٣، ٨١؛ النساء ٤٧) وليشرح ويفصّل الكتب المقدسة السابقة (الأنعام ١١٤؛ يونس ٣٧؛ يوسف ١١١) مع الاحتفاظ بمكانة أرفع بالنسبة لها (المائدة ٤٨). ويؤمن المسلمون بأنه كلمة الله الموجهة إلى كل البشر (ص٨٧؛ القلم ٥٢؛ التكوير ٢٧). القرآن الكريم هو قبل كل شيء إظهار إرادة الله التي هي في متناول عقل الإنسان. إنه يبرز لنا ما يجب أن نؤمن به وكيف يمكن لنا أن نسلك سلوكاً يتفق مع شريعة الله وأحكامه: [مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ]. (الشورى ٥١-٥٢)

لا يكشف القرآن الكريم عن ماهية الله لئلا يُنكر سموّه ومغايرته(transcendence)،أي كما قال أحد علماء المسلمين "يجب الاختيار بين مغايرة الله وإظهار ذاته إذ لا يمكن التوفيق بينهما"[٧]. وهذا يختلف تماماً عن طريقة تفكير المسيحيين بكتبهم المقدسة. فالإنجيل لا يقتصر على إظهار إرادة الله ووصاياه بل يتعدى ذلك إلى إظهار الله لذاته. هذا بالطبع أمر لا يمكننا استيعابه بشكل كامل بأذهاننا لأن الخالق كائن لا يسعه شيء ونحن بشر خطاة، أفكاره أعلى من أفكارنا وطرقه أعلى من طرقنا: [لأَنَّهُ كَمَا عَلَتِ السَّمَاوَاتُ عَنِ الأَرْضِ هَكَذَا عَلَتْ طُرُقِي عَنْ طُرُقِكُمْ وَأَفْكَارِي عَنْ أَفْكَارِكُمْ]. (إشعيا ٥٥: ٩)

---

[٧] إسماعيل الفاروقي في كتاب *Christian Mission and Islamic Da'wa*، ص ٤٨

ومع ذلك فإن الله يريد أن يظهر ذاته لنا من خلال كلمته لكي نعرفه حق المعرفة وتكون لنا معه علاقة وثيقة. فإضافة إلى احتواء الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل) على كلمة الله التي نطق بها رسله فإنه يسجل العديد من أعمال الله في تاريخ الإنسانية. الكلمات توضح الأعمال والأعمال تؤكد صحة الكلمات. في أيام موسى كان تحرير شعب إسرائيل من العبودية في مصر وإظهار شريعة الله له يمثل الذروة في الوحي الإلهي. والتوراة تمثل السجل المكتوب لكيفية إظهار الله لذاته من خلال تاريخ شعب إسرائيل، ويظهر الله الخالق ذاته في التوراة كمخلص لشعبه:

[أَنَا أَنَا الرَّبُّ وَلَيْسَ غَيْرِي مُخَلِّصٌ . ١٢أَنَا أَخْبَرْتُ وَخَلَّصْتُ وَأَعْلَمْتُ وَلَيْسَ بَيْنَكُمْ غَرِيبٌ. وَأَنْتُمْ شُهُودِي يَقُولُ الرَّبُّ] (إشعيا ٤٣: ١١–١٢)

[وَأُعْطِيهِمْ قَلْباً لِيَعْرِفُونِي أَنِّي أَنَا الرَّبُّ فَيَكُونُوا لِي شَعْباً وَأَنَا أَكُونُ لَهُمْ إِلَهاً لأَنَّهُمْ يَرْجِعُونَ إِلَيَّ بِكُلِّ قَلْبِهِمْ.]. (إرميا ٢٤: ٧)

أما بالنسبة للمسيحيين فقد بلغ الإعلان الإلهي ذروته بشخص يسوع المسيح قبل ألفي سنة، فالمسيح هو وحي الله الأسمى، كلمة الله الذي ظهر في هيئة إنسان (يوحنا ١: ١، ١٠، ١٤). والإنجيل هو رسالة البشارة التي صرح بها يسوع بكلماته وأفعاله. إنه تحقيق لوعد الله فقد جاء المخلص ليفدي مخلوقاته البشرية. إذاً يشير الكتاب المقدس إلى من هو الله وكيف أظهر ذاته بالسيد المسيح.

إن القرآن يصف اليهود والمسيحيين بأنهم "أهل الكتاب" كما هو الحال بالنسبة للمسلمين. وهذا وصف مناسب حيث أن

كلاً منهم يتمسك بكتابه المقدس. إلا أن المسيحيين ينظرون إلى أنفسهم على أنهم ليسوا فقط أهل الكتاب. إذ إنهم يحددون هويتهم قبل كل شيء بارتباطهم بيسوع المسيح- كلمة الله الأزلي الذي ظهر كإنسان. على هذا الأساس يحتل المسيح في المسيحية مكانة كتلك التي يحتلها القرآن الكريم في الإسلام فدور الإنجيل هو التعريف بالمسيح كما عرّف المسيح بالله. أما في الإسلام فإن محمدًا ما كان إلا نبياً ورسولاً مهمته تبليغ القرآن الذي هو كلمة الله السامية، والمسلمون حسب هذا المفهوم هم الذين يلتزمون بشريعة القرآن مقتفين أثر محمد.

وهذه الأفكار سندرسها بتفصيل أكثر فيما بعد، ولكن في هذه المرحلة لابد أن ندرك أن القرآن الكريم والإنجيل مختلفان أولاً بسبب الاختلاف في طبيعة الوحي فالأول يظهر إرادة الله فحسب بينما يعلن الله عن ذاته في الثاني.

٣- طريقة الوحي

يختلف المسيحيون والمسلمون في طريقة الوحي التي أبلغ الله بها كلمته. يلاحَظ هذا الاختلاف في بُعد المدى الذي استخدم الله فيه الإنسان عند الوحي. غالباً ما يُدهش المسلمون عند نظرتهم الأولى للإنجيل لأن بنيته ليست بالضرورة كما كانوا يتوقعون.

أسفار الكتاب المقدس

إن الكتاب المقدس مؤلف من ٦٦ كتاباً (أو سفراً) وينقسم الكتاب المقدس إلى مجموعتين رئيسيتين: العهد القديم (أو التوراة) الذي كُتب قبل مجيء المسيح والعهد الجديد (أو الإنجيل) الذي كُتب خلال القرن الأول بعد ميلاد المسيح.[٨]

---

[٨] إضافة لهذه الكتب الستة والستين، فإن بعض طبعات الكتاب المقدس تتضمن أسفاراً أخرى توجد في الترجمة اليونانية للعهد القديم (الترجمة السبعينية). إذاً

العهد القديم هو الكتاب المقدس للشعب اليهودي، ويتألف من ٣٩ سفراً:

* الأسفار الخمسة: وهي أسفار التكوين، الخروج، اللاويين، العدد والتثنية، وغالباً ما تسمى "أسفار موسى الخمسة". في سفر التكوين نجد وصفاً للخَلْق وتتابع حياة آدم ونوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف. وفي سفر الخروج نرى إنقاذ الله لشعب إسرائيل من العبودية في مصر وإعطاءه الشريعة لموسى في صحراء سيناء.

* الأسفار التاريخية: وهي أسفار يشوع، القضاة، صموئيل، الملوك وأخبار الأيام. هذه الأسفار تاريخ شعب إسرائيل منذ الأيام الأولى عندما كان القضاة يحكمونه إلى أيام الملكين داوود وسليمان والانقسام إلى مملكتي إسرائيل ويهوذا حتى الوقت الذي أنزل فيه الله حكمه العادل بواسطة جيوش الآشوريين والبابليين. والأسفار التاريخية الأخرى (عزرا ونحميا) تصف عودة بعض اليهود من السبي في بابل.

* سفر المزامير وأسفار الحكمة: وهي أسفار المزامير، الأمثال، الجامعة، نشيد الأنشاد وأيوب. المزامير هي مجموعة قصائد وترانيم فردية وجماعية في الشكر والتسبيح والمراثي كتبها الملك داوود.

* أسفار الأنبياء: هذه الأسفار تضم ما جاء به أنبياء الله داعين الناس للعودة إلى الله والتطلع قدماً نحو المستقبل. أطول

هذه الأسفار كلها في التوراة وهي: يهوديت، طوبيّا، المكابيين الأول والثاني، الحكمة، يشوع بن سيراخ، باروك والترجمة اليونانية لسفري أستير ودانيال. تُعرف هذه الأسفار بالأسفار "القانونية الثانية" التي تحتويها طبعات الكتاب المقدس المستخدمة في الكنيسة الكاثوليكية .

هذه الأسفار هي إشعياء، إرمياء، حزقيال، وأقصرها تضم أسفار عوبديا وحجي ويوئيل.

غالباً ما تسمى أسفار العهد القديم "التوراة" أو "الناموس" أو "الشريعة" (لوقا ١٦: ١٧). وكلمة "الشريعة" تفهم بمعناها الواسع الذي يشمل مجمل الوحي في جميع الأسفار المقدسة ولا يقتصر على القسم التشريعي وحده. ففي زمن يسوع المسيح كان الكتاب المقدس يسمى "الشريعة والأنبياء" (متى٥: ١٧؛ ٧: ١٢؛١١: ١٣). حيث تشير "الشريعة" بالتحديد إلى الأسفار الخمسة الأولى من الكتاب المقدس (لوقا ١٦: ١٦؛ ٢٤: ٢٧) و"الأنبياء" إلى أسفار الأنبياء. وهناك اسم آخر للكتب المقدسة وهو "شريعة موسى والأنبياء والمزامير" (لوقا ٢٤: ٤٤). كذلك كلمة "المزامير" تستخدم بمعناها الواسع الذي لا يُشير إلى سفر المزامير وحده بل إلى العديد من النصوص وخاصة أسفار الحكمة.

هكذا نرى أن العهد القديم هو مجموعة نصوص لا تتعلق بموسى وداوود فقط ولكن بأنبياء آخرين كثيرين أيضاً يصل عددهم جميعاً إلى نحو ثلاثين. إمتدت فترة الكتابة إلى ثمانية قرون من أيام موسى إلى داوود وسليمان وحتى ملاخي الذي عاش قبل المسيح بأربعة قرون.

أما رسالة العهد الجديد من الكتاب المقدس فتعرف بالإنجيل، وكلمة الإنجيل كما ذكرنا سابقاً تعني "البشارة" أو "الأخبار السارة". وعند استخدامها بصيغة المفرد "الإنجيل" تدل على رسالة يسوع المسيح وعند استخدامها بصيغة الجمع "الأناجيل" تشير إلى الأسفار الأربعة التي تروي حياة يسوع المسيح. هكذا نجد أن بشارة المسيح أو رسالته توجد في الأناجيل الأربعة وكذلك في باقي أسفار العهد الجديد.

يضم العهد الجديد ٢٧ سفراً:

* **الأناجيل:** متى، مرقس، لوقا ويوحنا.

* **أعمال الرسل:** وهو الكتاب الثاني الذي دونه لوقا والذي يبدأ بإعلان المهمة التي أعطاها يسوع لتلاميذه قبل صعوده إلى السماء، وهي أن يبشروا بالإنجيل جميع أمم الأرض. ثم يستطرد لوقا في سرد كيفية إعلان البشارة من أورشليم (القدس) وحتى روما، وكيف قبل العديد من الرجال والنساء رسالة الخلاص، وكيف نمت الكنيسة المسيحية بسرعة بالرغم من اضطهادها من قبل السلطات اليهودية والرومانية.

* **الرسائل:** كتب أغلبها رسل المسيح وخاصة بولس وبطرس ويوحنا، وقد وُجِّهت إلى الكنائس أو إلى قادة الكنائس لإعطاء مفهوم أعمق للإنجيل وتطبيقاته العملية.

* **الرؤيا:** كتبها يوحنا وهي تسّجل رؤيا أعطاها المسيح لأحد رسله، تؤكد أن الإنجيل مقدّر له أن يلقى معارضة شديدة خلال انتشاره. تحذر شعب الله من العذابات التي تنتظرهم في الوقت الذي تشجعهم فيه على التمسك بالرجاء حياً، وأن يستمدوا القوة من وعد المسيح بالرجوع إلى هذه الأرض. وعلى عكس مجيئه الأول فإن مجيئه الثاني المجيد سيرسخ ملكوت الله كمملكة السلام والعدل في المسكونة كلها.

كتب أسفار العهد الجديد تسعة عاش جميعهم خلال القرن الأول من العصر المسيحي. جميعهم كانوا يهوداً مع احتمال استثناء لوقا.

عملية كتابة الكتاب المقدس

يؤمن المسيحيون بأن الله ألهم كُتّاب الكتاب المقدس الذين كان معظمهم غير مدركين بذلك في وقت الكتابة. بعضهم مثل

موسى وبولس مشهورون، ولكن بقي آخرون مجهولين. جميعهم استخدموا كأدوات للروح القدس الذي مع احترام شخصياتهم واستخدام إمكاناتهم الذاتية جعلهم يدونون كلام الله. لم يُملِ الله عليهم ما يكتبونه ولكنهم ساهموا بشكل كامل في صياغة الرسالة التي تلقوها وتحمل كتاباتهم علامات شخصياتهم المتميزة .

أخذ كتّاب الكتاب المقدس بعين الاعتبار الخلفية الثقافية والاجتماعية للذين وجهت لهم الكتابة وتبعاً لذلك كيّفوا الرسالة التي كانوا ينقلونها. فمثلاً رغم أن الإنجيل الذي أعلنه يسوع يتضمن بشارة/ رسالة واحدة فإن هذه الرسالة كتبت بأربع صيغ متميزة (الأناجيل الأربعة)، يُمكن قراءتها في إنجيل متى وكذلك في إنجيل مرقس ولوقا ويوحنا. بالإضافة إلى ذلك فإن يسوع تكلم باللغة الأرامية، اللغة التي كان اليهود يتكلمون بها في فلسطين في ذلك الوقت، في حين أن الأناجيل كتبت باللغة اليونانية لأنها كانت موجهة إلى شعوب كانت تستخدم اللغة اليونانية كلغة مشتركة.

فكلمة "وحي" تشير إلى الطريقة التي قاد الله بها الناس بواسطة الروح القدس لكتابة كلامه، آخذاً بعين الاعتبار تاريخ بيئتهم وبيئة الذين وُجِّهت إليهم الكتابة. مع التأكيد فوق كل اعتبار على المصدر الإلهي للكتاب:

[أَنَّ كُلَّ نُبُوَّةِ الْكِتَابِ لَيْسَتْ مِنْ تَفْسِيرٍ خَاصٍّ، "لأَنَّهُ لَمْ تَأْتِ نُبُوَّةٌ قَطُّ بِمَشِيئَةِ إِنْسَانٍ، بَلْ تَكَلَّمَ أُنَاسُ اللهِ الْقِدِّيسُونَ مَسُوقِينَ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ]
(٢ بطرس ١: ٢٠-٢١)

بناء على ذلك فإن الكتاب المقدس هو كلام الله – وهو ما يضمن كونه معصوماً – وكلام الإنسان في آنٍ معاً. إن كون

الكتاب المقدس مكتوباً من قبل بشر يعني أننا نستطيع أن نترجمه إلى لغات أخرى وأن ندرسه كما ندرس الكتب الأخرى. كما يمكننا أن نستخدم كل موارد المعرفة البشرية لتساعدنا على فهمه بشكل أفضل. وأن ننظر إلى النص من جميع الزوايا الممكنة، أخذين في الحسبان نوع النص الأدبي: هل هو تاريخي أم شعري، نبويّ أم قصصي، تشريعي أم رؤيوي، أم من أدب الحكمة. وبذلك نقرر كيفية الوصول إلى تفسيره. في حين يعني الإلهام الإلهي للكتاب المقدس أن نقترب إليه بالاتضاع اللازم حيث أننا نسعى إلى فهم كلام الله والخضوع له:

فالكتاب كله من وحي الله، يفيد في التعليم والتفنيد والتقويم والتأديب في البر.(٢ تيموثاوس ٣: ١٦)

كل ما جاء قبلاً في الكتب المقدسة إنما جاء ليعلمنا كيف نحصل على الرجاء بما في هذه الكتب من الصبر والعزاء. (رومية ١٥: ٤)

محمد يتلقّى وحي الله

حسب الحديث النبوي [٩] فإن وحي الله جاء إلى محمد بأكثر من شكل واحد. وقد كان تجربة مؤلمة في بعض الأحيان:

عن عائشة أم المؤمنين أن الحارث بن هشام سأل رسول الله (ص) فقال:

– يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله:

سيجد القارئ في بداية الفصل الثالث مقدمة موجزة عن الحديث.

– أحياناً يأتيني مثل صلصلة[10] الجرس وهو أشدّه عليّ فيُفصَم عني وقد وعيت عنه ما قال وأحياناً يتمثل لي الملَك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول.

قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيَفصِم عنه وإن جبينه ليتفصّد عرقاً.[11]

عندما ظهر الملاك جبريل لمحمد لأول مرة كان اللقاء مخيفاً وغير متوقع. كان محمد آنذاك في الأربعين من عمره متزوجاً من خديجة، وكان يتعبد في غار حراء قرب مكة:

عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت:

أول ما بُدئ به رسول الله (ص) من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبّب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنّث فيه وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء. فجاءه الملَك فقال:

---

[10] الصلصة: صوت الحديد إذا حرك يقال صل الحديد، وصلصل. والصلصة أشد من الصليل. ص١٥ فضائل القرآن الإمام أحمد بن شعيب النسائي تحقيق د. جمال محمد أبو زيد، دار الحرية.

[11] بخاري، كتاب صحيح البخاري بدء الوحي ٢: ١/٢/٢. في الطبعة المذكورة في المراجع يوجد هذا الحديث في الجزء ١ الصفحة ٢ الحديث رقم ٢.

- اقرأ. قال:

- ما أنا بقارئ. قال:

- فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني. فقال:

- اقرأ. قلت:

- ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني. فقال:

- اقرأ. فقلت:

- ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني. فقال:

- [اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{١} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{٢} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ] (العلق ١-٣). فرجع بها رسول الله يرجف فؤاده. فدخل على خديجة بنت خويلد. فقال:

- زملوني زملوني.

فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر:

- لقد خشيت على نفسي. فقالت خديجة:

- كلا والله ما يخزيك الله أبداً. انك لتصل الرحم وتحمل الكَلّ وتكسب المعدوم وتَقري الضيف وتعين على نوائب الحق.

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزّى ابن عم خديجة. وكان امرأ تنصّر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب وكان شيخاً كبيراً قد عمي. فقالت له خديجة:

- يا ابن عمّ اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة:

- يا ابن أخي ماذا ترى؟

فأخبره رسول الله (ص) خبر ما رأى. فقال له ورقة:

- هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى. يا ليتني فيها جذعاً ليتني أكون حياً اذ يُخرجك قومك. فقال رسول الله (ص):

- أومخرجيّ هم؟ قال:

- نعم. لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي وإن يُدرِكني يومك أنصرك نصراً مؤزّراً. ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي.

أن جابر بن عبد الله الأنصاري قال وهو يحدث عن فترة الوحي، فقال في حديثه:

- بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فرُعبت منه فرجعت. فقلت:

- زملوني. فأنزل الله تعالى:

- [يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ{١} قُمْ فَأَنذِرْ{٢} وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ{٣} وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ{٤} وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ] (المُدَّثِّر ١-٥).

فحمي الوحي وتتابع.[١٢]

كان أمر جبريل إلى محمد "اقرأ". في المفهوم الديني تعني هذه الكلمة "أعلن" أو "أتلُ" كلام الله. وكلمة القرآن ترجع إلى نفس المصدر ولهذا تعني طقس تلاوة كلام الله وبالتوسع أصبحت ترمز إلى كلام الله نفسه. لدهشته رفض محمد استلام الرسالة التي كلّف الملاك بتوصيلها إليه. أجابه ثلاث مرات "لست بقارئ" وهو تعبير قد يعني "إني لا أستطيع القراءة" أو "إني لا أريد القراءة". تقليدياً يُؤثر المسلمون المعنى الأول "إني لا أستطيع القراءة" مستخلصين بأمية محمد. ولكن وحسب علمنا فإن جبريل لم يقدّم لمحمد نصاً مكتوباً ليقرأه، والملاك كان يعلم بالتأكيد لو كان محمد أمياً. إضافة لذلك فإن محمداً تلا ما سمعه من الملاك بعد أن غطّه. إن الحديث يذكر بوضوح أن لقاء محمد الأول مع الملاك جبريل كان مفزعاً مروّعاً ولهذا رفض محمد الانصياع له. حاول قدر استطاعته رفض أمر الملاك بقوله "ما أنا بقارئ" ولكنه غُلب أخيراً وأجبر على تلاوة الوحي الذي سجل في سورة العلق. قد يُدهش هذا التفسير العديد من المسلمين وقد يرفضه بعضهم بالتأكيد، ولكن هناك من يؤيده من العلماء المسلمين المعاصرين.[١٣]

---

[١٢] بخاري، بدء الوحي ٣: ١/٣/٣، ٤.

[١٣] راجع محمد شحرور، الكتاب والقرآن، ص ١٣٩-١٤٣.

كان دور النبي أن يحفظ الرسالة عن ظهر قلب ويعظ بها قومه في مكة. كان يُبلّغ إليه الوحي كلمة بكلمة ولم يكن له أن يتدخل في الرسالة بأي شكل من الأشكال ولكن كان عليه أن يحفظ ويتلو الكلمات التي يسمعها. في الواقع إن كون القرآن قد أملي على محمد بهذه الطريقة يعني أن كتاب المسلمين المقدس هو كلام الله وكلام الله فقط. ولهذا السبب فإن المتكلم في النصوص القرآنية يكون عادة بصيغة الجمع ويشير الجمع إلى الجلال الإلهي. وعلى هذا تكون القراءة الحرفية هي الطريقة التي تلقى بها محمد كلام الله ونقله. هذه القراءة تمثّل مساهمة محمد الوحيدة في العملية التي أعلن بها الله كلامه والتي يشير إليها القرآن بكلمة (أنزل) و(نزّل). وقد أوحي القرآن إلى النبي العربي باللغة العربية.

تلقى محمد الوحي لأول مرة سنة ٦١٠ ميلادية. لم يكن سكان مكة متحمسين لتعاليم القرآن. على الرغم من أنه لم يُضطهد علَناً إلا أن النبي قوبل بالمعارضة الشديدة ورُفضت رسالته. وفي سنة ٦٢٢ ميلادية اضطر لمغادرة مدينته واللجوء مع صحبه إلى يثرب التي أصبحت تُعرف لاحقاً بالمدينة المنورة (مدينة الرسول). تعتبر هذه الرحلة التي تعرف بالهجرة بداية عصر الإسلام. نمت الجماعة الإسلامية في المدينة نمواً سريعاً. واستمر الوحي الإلهي إلى موت النبي سنة ٦٣٢ ميلادية.

مضمون القرآن

يضم القرآن الكريم كل ما أوحي به إلى محمد، ويحوي ١١٤ فصلاً أو سورة وهي مرتبة إلى حد ما تنازلياً حسب طول السورة. وضعت السور القصيرة في آخر الكتاب حتى ولو كانت الأولى حسب الترتيب الزمني. تعتبر سورة الفاتحة

استثناءً فرغم كونها قصيرة نجدها في بداية القرآن نظراً لأهميتها. يصفها الحديث بأنها أعظم سُوَرِ القرآن [14]. وهي صلاة يتلوها المسلمون ويعتبرونها ملخصاً للقرآن كله. كبقية السور (عدا سورة التوبة) تبدأ بالبسملة "بسم الله الرحمن الرحيم":

[بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ{١} الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{٢} الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ{٣} مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ{٤} إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ{٥} اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{٦} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{٧}] (الفاتحة ١-٧)

اختلافات مهمة

يختلف وحي الكتاب المقدس عن وحي القرآن في المنظور التاريخي وفي عدد الموحى إليهم.

* المنظور التاريخي: يفتقد القرآن إلى البُعد التاريخي الذي نجده في الكتاب المقدس. أُبلغ الوحي الكتابي خلال فترة تزيد على ألف سنة بينما أُبلغ الوحي في القرآن خلال ثلاث وعشرين سنةً. وتبعاً لذلك لا نجد في القرآن نبوءات تحققت خلال فترة نزوله.[15]

* الموحى إليهم: أوحي القرآن إلى شخص واحد بينما أؤتمن العديد من الأشخاص على كتابة الكتاب المقدس. هذا ما

---

[14] صحيح بخاري، فضائل القرآن ٩: ٣/١٠٥١/٥٠٥٧.

[15] قد تشكل سورة الروم وما ترويه حول المعارك بين الفرس والروم (أي البيزنطيين) في الآيات ١-٤ استثناء على ذلك، غير أن صيغة النبوة في هذه الآيات مشكوك بها لسببين، الأول اختلاف التحريك في الآية الثانية والثاني تأريخ هذه الآيات غير موثوق به.

يفسر، بالإضافة إلى كيفية وحي القرآن، كون الوحدة الأدبية للقرآن أكثر وضوحاً مما هي عليه في الكتاب المقدس. ولكن بما أن هناك العديد من المدونين البشر للكتاب المقدس، تبرز هذه التعددية وحدة رسالته على نحو أفضل.

٣- نقل الوحي

أُعطي القرآن الكريم بلغة عربيـــة واضـــحة (الحِجــر ١؛ النمل١؛ يس ٦٩) ولكن النبي لم يلاقِ النجاح عندما بدأ يعــظ في مكة. رفض معظم سامعيه رسالته ولم يصــدقوا بمصــدر القرآن الإلهي. ولكي يقنعهم الرسول تحداهم بأن يأتوا بعشــر سُوَر (هود ١٣)، أو حتى بسورة واحدة (البقرة ٢٣؛ يــونس ٣٨) لها نفس المستوى الأدبي الذي للقرآن:

> [وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَــأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ] (البقرة ٢٣)

ما يسمى عموماً "إعجاز القرآن" يعني الإقرار بأن للقرآن بلاغة أدبية يفوق مستواها قدرة البشر. يعتبر هــذا الإعجــاز دليلاً على أن القرآن جاء من عند الله (البقرة ١؛ يــونس ٣٧؛ الإسراء ٨٨؛ الطور ٣٤):

> [وَمَا كَانَ هَــذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ وَلَــكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَــابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ] (يونس ٣٧)

إن إعجاز القرآن وفصاحته إثبات مقنع للمسلمين وبصورة خاصة لأنهم يعتبرون أن محمداً كان أمياً. يستند المسلمون في اعتقادهم هذا إلى النص القرآني الذي يتكلم عن [النَّبِيَّ الأُمِّيَّ] (الأعراف ١٥٧، ١٥٨). إن كلمة "أمّي" لا تعني بالضــرورة

عدم القدرة على القراءة أو الكتابة. وفي الواقع يستخدمها القرآن في أربع آيات أخر. فقد تعني الجهل بكلام الله كما كان حال بعض اليهود (البقرة ٧٨) أو قد تصف من هو من أمّة ليس لها كتاب منزل (آل عمران ٢٠، ٧٥) كما كان حال الأمة العربية قبل نزول القرآن (الجمعة ٢). ومما لا شك فيه أن الرسول العربي كان أمياً بهذا المعنى الذي ينطبق على كافة العرب:

[وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ] (آل عمران ٢٠)

[هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ](الجمعة ٢)

لغة القرآن

بما أن القرآن أوحي به باللغة العربية وبلاغته الأدبية تشكل إثباتاً مهماً لطبيعته الإلهية، يتبع ذلك أن اللغة العربية وكلام الله وحدة لا تتجزأ. وفي الحقيقة إن القرآن يقدم نفسه كقرآن عربي (طه ١١٣؛ الزُمر ٢٨؛ الشورى ٧):

[إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ] (يوسف ٢)

[تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ{٢} كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ] (فصّلت ٢-٣)

بما أن القرآن كلمة الله، التي لا مثال لها لا من حيث اللغة ولا من حيث الرسالة فإنه يستحيل ترجمته إلى أية لغة أخرى. لقرون عديدة لم يكن هناك أية رغبة في ترجمته، ولكن اليوم

يتوفر عدة ترجمات بعضها تم اعتماده من قبل المراجع الإسلامية العليا (كالأزهر). لكن هذه الترجمات لا تعتبر كلام الله. ففي أحسن حالاتها تمثل إعادة صياغة أو شرح معاني القرآن، فمثلاً تحمل ترجمة يوسف علي الإنجليزية للقرآن العنوان: "ترجمة معاني القرآن الكريم".

الوحدة الأساسية بين حرف ورسالة القرآن تثير التساؤل حول الطبيعة العالمية للإسلام. يعلن القرآن أن محمداً هو نبي أرسل للإنسانية جمعاء (الأنبياء ١٠٧) وأن الإسلام دين لكل الناس (آل عمران ١٩، ٨٥). هل يمكن التوفيق بين هذا الإعلان وحقيقة أن القرآن هو كلام الله باللغة العربية فقط وأنه بحوزة الناطقين بالعربية دون غيرهم؟ ألا يؤدي ذلك إلى خطورة وضع اللغة العربية والثقافة العربية في موضع أعلى من كافة الشعوب المسلمة؟ ولو كان الله قريباً لمن يدعوه كما يعلن القرآن (البقرة ١٨٦؛ ق ١٦) فكيف تكون كلمته غير متاحة إلا باللغة العربية؟ في الحقيقة ليس بالضرورة القصوى أن يكون المرء قادراً على قراءة القرآن أو تلاوته ليكون مسلماً. إن الضرورة هي النطق بالشهادة "أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله"، والقيام بالواجبات الشرعية: الصلاة، الزكاة، الصوم والحج. مع ذلك إن كان الله إله الشعوب كافة مهما كانت لغتنا أو بلدنا ألا نتوقع أن الله يرغب في مخاطبتنا مستخدماً لغتنا الأم؟

جمع القرآن

لعب استظهار القرآن من قبل الأجيال الأولى من المسلمين دوراً أساسياً في حفظه ونشره. دُونت بعض أجزائه على مواد مختلفة كالعظام وجلود الإبل. كان العامل الأساسي الذي دفع السلطات الدينية لجمع القرآن بأكمله في كتاب هو أن العديد

من حفظة القرآن كانوا يموتون في المعارك. فخُشي أن يؤدي موتهم إلى فقدان بعض آيات الوحي الإلهي. حسب الحديث كانت أولى محاولات جمع سُوَر القرآن خلال عصر الخليفة الأول أبو بكر الصديق (٦٣٢-٦٣٤ ميلادية) وبناء على اقتراح عُمر (الذي أصبح فيما بعد الخليفة الثاني). يعطينا زيد بن ثابت الذي كان كاتب النبي وصفاً لما حدث:

أرسل إلي أبو بكر مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده. قال أبو بكر:

- إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحرّ[16] يوم اليمامة بقرّاء القرآن وإني أخشى أن يستحرّ القتل بالقرّاء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن. قلت لعمر:

- كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله (ص)؟ قال عمر:

- هذا والله خيرٌ.

فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ورأيت في ذلك الذي رأى عمر. قال زيد قال أبو بكر:

- إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله (ص) فتتبَع القرآن فاجمعه.

فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني من جمع القرآن. قلت:

---

[16] استحر: اشتد

– كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله (ص)؟
قال:

– هو والله خير.

فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر. فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب[17] واللخاف[18] وصدور الرجال[19] حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره [لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أنفسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتّمْ] (التوبة ١٢٨) حتى خاتمة براءة. فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حياته ثم عند حفصة بنت عمر.[20]

المرحلة الثانية من جمع القرآن جرت أيام الخليفة عثمان، الخليفة الثالث (٦٤٤–٦٥٦ ميلادية). إضافة لمجموعة القرآن التي كانت لدى حفصة في المدينة كانت هناك أربع مجموعات أخرى متداولة: في الكوفة (العراق) والبصرة (العراق) ودمشق (سوريا) وحمص (سوريا). تم تكليف لجنة مسؤولة عن تحديد النص الحاسم للقرآن بالاستناد إلى مجموعة حفصة. وبسبب وجود اختلافات بين النسخ المتعددة كان على اللجنة أن تقرر أياً منها هو الأصيل. عندما تمّ تحديد نصّ

[17] العسب: جمع عسيب، وهو جريد النخيل. وقد كانوا يكشطون عنه الخوص، ويكتبون عليه.
[18]
[19] صدور الرجال: أي من الرجال الذين يحفظونه في صدورهم
[20] بخاري، فضائل القرآن ٣: ٥٠٣٧/١٠٤٧/٣.

القرآن بشكل نهائي أمر عثمان بإتلاف جميع النسخ الأخرى للحفاظ على وحدة جماعة المسلمين:

قدم حذيفة بن اليمان على عثمان، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة. فقال حذيفة لعثمان:

– يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى.

فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردّها إليك. فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف. وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة:

– إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيءٍ من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم.

ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردّ عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف[21] مما نسخوا وأمر بما سواه من

---

[21] لما كتب المصحف، قال عثمان رضي الله عنه : التمسوا له اسماً. فقال قوم: الكتاب وقال آخرون: السفر. وقال قوم: المصحف. وهو اسم أعجمي، ومعناه: جامع الصحف لسماه به.
هامش ص٢٢، فضائل القرآن – الإمام أحمد بن شعيب ***، تحقيق د. جمال محمد أبو زيد، الناشر دار الحرية.

القــرآن فــي كــل صـــحيفة أو مصـــحف أن يُحرق.٢٢

لم يرتح جميع المسلمين إلــى قــرار عثمــان، وخاصــة المسلمين الشيعة الذين ينسبون تعاليمهم إلــى مصــحف ابــن مسعود (أحد صحابة النبي) الذي كان يتداوله أهل الكوفة بدلاً من مصحف عثمان. ولعب هذا الإختلاف دوراً فــي اغتيــال عثمان من قبل مسلم شيعي. لم يبقَ لــدينا الــنص الأصــلي لمصحف عثمان وأقدم النسخ الموجــودة الآن لــبعض ســور القرآن تعود إلى القرن الثاني للعصر الإسلامي. إن مصــحف عثمان هو الوحيد الذي تستند إليه طبعات القرآن الحالية، ومع ذلك فإنه يضم عدة قراءات مختلفة. في ســنة ٣٢٢ للهجــرة (٩٢٣ ميلادية) حُدّد عدد القراءات المختلفة المعتــرف بهــا رسمياً بسبعٍ بسبب حديثٍ ينسب إلى النبي رواه ابن عبــاس: "أقرأني جبريل على حرفٍ فراجعته فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف".[٢٣]

نقل نص الكتاب المقدس

على خلاف لغة القرآن العربية فإن لغات الكتاب المقــدس (العبرية والآرامية في العهد القديم واليونانية في العهد الجديد) ليست مقدسة بذاتها، فهي مجرّد وسيلة لإبلاغ الوحي الإلهي. في القرون الأولى للعصر المسيحي ترجمت الأناجيل إلى عدة لغات مثل السريانية والقبطية والأثيوبية والأرمنية واللاتينية. إشتهرت الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس المعروفة بترجمــة "فولجيت" (Vulgate) في أوربا الغربيــة خــلال العصــور الوسطى حيث كانت اللغة اللاتينية الأوسع انتشاراً.

---

[٢٢] بخاري، فضائل القرآن ٣: ٣/١٠٤٨/٥٠٣٨.
[٢٣] بخاري، فضائل القرآن ٥: ٣/١٠٤٩/٥٠٤٢.

كان مارتن لوثر (١٤٨٣-١٥٤٦) أول من تــرجم العهــد الجديد إلى اللغة الألمانية لتصل كلمة الله إلى الناس الذين لــم يكونوا يلمون باللغة اللاتينية. تبع ذلك سريعاً ترجمة الكتــاب المقدس إلى لغات أوربية أخرى. يتجاوز اليوم عــدد اللغــات التي تُرجم إليها سفر واحد على الأقل من الكتاب المقدس ألفي لغة. هذا الجهد الاستثنائي في ترجمة الكتاب المقدس ما كــان ليتحقق ما لم تكن هناك قناعة تامة بأن الكتاب المقــدس هــو كلمة الله حتى بعد الترجمة. أليس الله المحب قادراً وراغباً في إعلان كلمته بالطريقة التي يمكن أن تُقرأ بأية لغة من لغــات البشر؟!

على خلاف القرآن فإن صفة الكتاب المقــدس الإلهيــة لا تظهر من خلال مستوى لغته الأدبية بل من خلال أعمــال الله التي تشهد على صحة كلمته. إختار الله موسى ليكون رســوله ولاحقاً أكد ذلك بتحرير اليهود من عبــوديتهم فــي مصــر. ويصح ذلك أيضاً بالنسبة ليسوع المسيح، فالإنجيل الذي بشــر به لا يمكن فصله عن معجزاته وبالأحرى عن موته وقيامتــه من بين الأموات. قيامة المسيح من بين الأموات التي تلاهــا رفعه الى السماء هي حدث ليس له مثيل في التــاريخ وهــي تبرهن على الصفات المنفردة في شخصــه وتبــرز حقيقــة الألقاب التي أطلقها على نفسه.

يرجع تاريخ كتابة الأناجيل الأربعة إلى النصف الثاني من القرن الأول الميلادي ولو أنها تستقي كثيراً مــن نصــوص جُمعت قبل ذلك. تقتبس الكتابات المسيحية في النصــف الأول من القرن الثاني بطلاقة من هذه الأناجيل. منذ بداية النصــف الثاني من القرن الثاني سادت مرجعية الأناجيل علــى جميــع الكتابات التي سبقتها ومنذ نهاية القرن الثاني بدأت الأناجيــل تعتبر جزءاً من الأسفار المقدسة.

لا تتوفر حالياً المخطوطات الأصلية للكتاب المقدس، ولكن دراسة المخطوطات المتوفرة تؤكد أصالة الكتاب المقدس. في سنة ١٩٤٧ تم العثور على عدد كبير من المخطوطات في مغارة قمران قرب البحر الميت ويرجع تاريخها إلى القرن الأول الميلادي. ضمت هذه المخطوطات كلاً من سفر إشعياء وأجزاء متفرقة من جميع أسفار العهد القديم، عدا سفر أستير. حتى هذا الاكتشاف كانت أقدم المخطوطات لدينا ترجع إلى القرن العاشر الميلادي، وهذا أتاح فرصة فريدة وغير متوقعة للتأكد من دقة نقل أسفار العهد القديم على مدى ألف سنة. أكد جميع الخبراء الذين فحصوا النصوص (لم يكن جميعهم مسيحيين) على أن النقل قد تم بدقة متناهية تثير الإعجاب، وأن الاختلافات التي وجدت، رغم كثرة عددها نسبياً، لم تكن من النوع الذي يستدعي التشكيك في سلامة نصوص العهد القديم. وعلى هذا فإن مطابقة هذه المخطوطات تشهد لضمائر النُسّاخ الذين قاموا بنسخ ونقل نصوص التوراة من جيل إلى جيل.

يصح الشيء نفسه بالنسبة لمخطوطات العهد الجديد. أقدم المخطوطات المتوفرة لجزء من الأناجيل يعود تاريخها إلى أواسط القرن الثاني الميلادي وهنالك المئات من المخطوطات الأحدث عهداً. إن ضخامة عدد المخطوطات المتوفرة عامل إيجابي إذ أنه يُمكّننا من تحديد جودتها. على الرغم من وجود قراءات مختلفة ليس لها أهمية تذكر، فإن هذه المخطوطات تشهد على الحق الدائم في الإنجيل كما بشر به يسوع المسيح وكما سلّم من قبل رسله.

إنّ النظرة العامة المخلصة لتاريخ نقل الكتاب المقدس والقرآن تدل على أن نصوص الكتاب المقدس لها على الأقل نفس درجة الاعتماد كتلك التي لنصوص القرآن.

٤- رسالة الوحي

إن درجة موثوقية الوحي تعتمد على مصدره الإلهي وعلى مصداقية نقله. ولكن ماذا عن رسالة الوحي التي شكلت إيمان وحياة العديد من المسيحيين والمسلمين؟ سنأخذ لمحة بسيطة عن تعاليم الكتاب المقدس والقرآن قبل أن نسبر غور رسالتيهما في الفصول الأخرى.

الوحي في القرآن هو من حيث الأساس شريعة أعطيت بشكل كتاب ليرينا إرادة الله وكيف نتبعها. إن البشر في المنظور الإسلامي هم مخلوقات ضعيفة وجاهلة. نحن نخالف وصايا الله ولكي لا نضل نحتاج إلى شريعة لتعيدنا إلى المسار القويم.

الوحي في الكتاب المقدس يضم أيضاً شريعة تتلخص في الوصايا العشرة، ولكن مجمل تاريخ إسرائيل يرينا أن الشعب كان عاجزاً عن إطاعة الشريعة. فمشكلتنا إذاً لا تكمن في عدم معرفتنا لإرادة الله بل في أننا لا نرغب في طاعتها أو أننا غير قادرين على ذلك. نحتاج إلى أكثر من نور وهدى لتوجيهنا ولهذا بعد أن أرسل الله العديد من الأنبياء أرسل السيد المسيح ليكون مخلصاً لنا وأعطانا الروح القدس لكي نعيش بحسب معاييره.

يعد الإسلام المسلمين بالعون الإلهي. هذا العون يُعطى بشكل تعاليم تنظم كافة مناحي الحياة الدينية والعائلية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية. من هذه التعاليم الموجودة في القرآن والحديث يتعلم المسلمون أن يعيشوا حسب إرادة الله. ويحث تعليم القرآن المسلمين على الإيمان بالله والقيام بالأعمال الحسنة وهكذا يكونون مستعدين ليوم الدين. هكذا يأمل المسلمون بالخلاص من العذاب الأبدي،

ولكن هذا الخلاص لن يُعلن قبل اليوم الأخير. كانت حياة النبي بشكل خاص توضيحاً قوياً لرسالة القرآن حيث كان في آن واحد نبياً وقائداً سياسياً ومصلحاً اجتماعياً وقائداً عسكرياً، وهو يعتبر مثالاً يُحتذى به من قبل جميع المسلمين وهو الذي سيشفع فيهم يوم الدين.

على خلاف محمد، لم يلتمس المسيح أن يؤسس ملكوت الله على الأرض بكمال مجده. لماذا؟ لأن الشر مكتوب في قلوب الرجال والنساء، وهذا يعني أن الملكوت لا يمكن أن يؤسس بالقوة ولا بمجرّد إصلاح ديني. إنه يتطلب أن يستجيب الناس إلى رسالة الإنجيل بكل حرية. سيأتي اليوم الذي يؤسس فيه يسوع المسيح ملكوت الله على الأرض، يوم مجيئه الثاني في مجده. حتى ذلك الوقت يعطي الله لكل واحد منا فرصة الإيمان بيسوع المسيح حتى يمكن لنا أن نخلص من عبودية الشرّ ونتائجه. هؤلاء الذين يؤمنون بالمسيح كمخلصهم سينجون من العقاب الأبدي وهم يكرسون أنفسهم لمدّ ملكوت الله في المجتمع.

إن الهدف النهائي للوحي في المفهوم الإسلامي هو جلب الناس للإسلام لكي يخضعوا للخالق ويعبدوه. إن الناس عباد الله عليهم شكره وحمده على نِعَمِه التي لا تحصى وإن من واجبهم أن يظهروا امتنانهم بالعيش بخضوع كامل لإرادة ربهم. السؤال هنا هو: هل نستطيع أن نخضع حقيقةً لله ونعبده دون تغيير جوهري في كياننا الداخلي؟

خدمة الله هي بالتأكيد واحدة من أعظم امتيازاتنا كبشر ولكن الأعظم من هذه الامتيازات، من وجهة نظر الإنجيل، هي أننا كبشر خُلقنا على صورة خالقنا ومثاله وأننا مدعوون للدخول معه في علاقة جديدة وحميمة. الإنسان هو الوحيد بين

كل المخلوقات الذي تلقّى هذه الدعوة الفريدة. ليس الله بـــربّ فقط، إنه أبونا السماوي بالتبني إذا استجبنا لدعوته. أية نعمـــة حُزنا عليها نحن المخلوقات لنتمتع بهذه العلاقة الوديـــة مـــع خالقنا وندعى أبناءه بالتبني! هذه العلاقة التي يـــدعونا إليهـــا الإنجيل لا تنطوي على اندماج طبيعة الله بطبيعتنا. الله يبقـــى كما هو، كما نبقى نحن كذلك دون أي امتزاج بـــين الطبيعـــة الإلهية والطبيعة البشرية.

الفصل الثاني

القرآن والتحريف

كل من يشترك في حوار بين المسيحيين والمسلمين يعرف بأنه عاجلاً أم آجلاً سيواجه السؤال المتعلق بأصالة التوراة والإنجيل، وهذا هو منشأ العديد من المجادلات وقد لا يكون هذا السؤال هو السؤال الأول دائماً ولكن معظم المجادلات تنتهي إليه.

ما جاء في القرآن عن محمد

يجزم القرآن بأن كلاً من التوراة والإنجيل قد تنبأ بمجيء النبي الأمي، وهو محمد. جاء في سورة الأعراف:

[الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ] (الأعراف ١٥٧)

إن إبراهيم ويسوع قد أشارا إلى مجيء محمد. وضع ابراهيم وابنه إسماعيل أساس بيت الله في مكة. وطلبا من الله أن يُرسل لأحفادهم رسولاً منهم:

[رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ] (البقرة ١٢٩)

ينظر المسلمون إلى مجيء محمد على أنه استجابة الله لصلاة ابراهيم هذه. وحسب القرآن فإن يسوع المسيح أيضاً قد أبلغ عن مجيء نبي يُدعى "أحمد" وهو اسم شبيه بمحمد

ويُفهم من قبل المسلمين بالإستناد الى الحديث على أنــه اسـم ثان للنبي [٢٤]:

[وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ]. (الصف ٦)

يجدر هنا الإشارة الى أن القرآن لا يورد أيـة آيـة مـن الكتاب المقدس شهادة لتبرير هذا الادعـاء. وهـذا اخـتلاف صارخ عمّا جاء في الإنجيل الذي يُعطي العديد من الشـواهد الكتابية من التوراة التي تدعم كون يسوع هو المسيح المنتظر فمثلا:

* معجزة ولادته (متى ٢: ١-٦) [وَلَمَّا وُلِدَ يَسُوعُ فِي بَيْتِ لَحْمِ الْيَهُودِيَّةِ فِي أَيَّامِ هِيرُودُسَ الْمَلِكِ إِذَا مَجُوسٌ مِنَ الْمَشْرِقِ قَدْ جَاءُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ ٢قَائِلِينَ: «أَيْنَ هُوَ الْمَوْلُودُ مَلِكُ الْيَهُودِ؟ فَإِنَّنَا رَأَيْنَا نَجْمَهُ فِي الْمَشْرِقِ وَأَتَيْنَا لِنَسْجُدَ لَهُ ٣فَلَمَّا سَمِعَ هِيرُودُسُ الْمَلِكُ اضْطَرَبَ وَجَمِيعُ أُورُشَلِيمَ مَعَهُ ٤فَجَمَعَ كُلَّ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَكَتَبَةِ الشَّعْبِ وَسَأَلَهُمْ: «أَيْنَ يُولَدُ الْمَسِيحُ؟ ٥فَقَالُوا لَهُ: «فِي بَيْتِ لَحْمِ الْيَهُودِيَّةِ لأَنَّهُ هَكَذَا مَكْتُوبٌ بِالنَّبِيِّ ٦وَأَنْتِ يَا بَيْتَ لَحْمٍ أَرْضَ يَهُوذَا لَسْتِ الصُّغْرَى بَيْنَ رُؤَسَاءِ يَهُوذَا لأَنْ مِنْكِ يَخْرُجُ مُدَبِّرٌ يَرْعَى شَعْبِي إِسْرَائِيلَ].

سبق الإبلاغ عنها (ميخا ٥: ٢) [أَمَّا أَنْتِ يَا بَيْتَ لَحْمَ أَفْرَاتَةَ وَأَنْتِ صَغِيرَةٌ أَنْ تَكُونِي بَيْنَ أُلُوفِ يَهُوذَا فَمِنْكِ يَخْرُجُ

[٢٤] جاء على لسان النبي: "أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يُمحى به الكفر وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على عقبي وأنا العاقب الذي ليس بعـده نبـي". رواه مسلم، فضائل ٣٤: ٢/١٠٠٦/٦٢٥١.

لِي الَّذِي يَكُونُ مُتَسَلِّطاً عَلَى إِسْرَائِيلَ وَمَخَارِجُهُ مُنْذُ الْقَدِيمِ مُنْذُ أَيَّامِ الأَزَلِ].

* رسالته الخلاصية (لوقا ٤: ١٦-٢١) "وجاء إلى الناصرة حيث كان قد تربى، ودخل المجمع حسب عادته يوم السبت وقام ليقرأ. فدُفِعَ إليه سفر إشعياء النبي، ولما فتح السفر وجد الموضع الذي كان مكتوباً فيه. روح الرب عليَّ لأنه مسحني لأبشر المساكين أرسلني لأشفي المنكسري القلوب لأنادي للمأسورين بالإطلاق وللعمي بالبصر وأرسل المنسحقين في الحرية. وأكرز بسنة الرب المقبولة. ثم طوى السفر وسلمه إلى الخادم وجلس، وجميع الذين في المجمع كانت عيونهم شاخصة إليه. فابتدأ يقول لهم إنه اليوم قد تم هذا المكتوب في مسامعكم. خبَّر عنها الأنبياء مئات السنين من قبل (إشعيا ٦١: ١-٢) [رُوحُ السَّيِّدِ الرَّبِّ عَلَيَّ لأَنَّ الرَّبَّ مَسَحَنِي لأُبَشِّرَ الْمَسَاكِينَ أَرْسَلَنِي لأَعْصِبَ مُنْكَسِرِي الْقَلْبِ لأُنَادِيَ لِلْمَسْبِيِّينَ بِالْعِتْقِ وَلِلْمَأْسُورِينَ بِالإِطْلاَقِ [2] لأُنَادِيَ بِسَنَةٍ مَقْبُولَةٍ لِلرَّبِّ وَبِيَوْمِ انْتِقَامٍ لإِلَهِنَا. لأُعَزِّيَ كُلَّ النَّائِحِينَ.

* أعلن الأنبياء أيضاً عن موت المسيح الفدائي (أعمال ٨: ٢٩-٣٥) فقال الروح لفيلبس تقدم ورافق هذه المركبة. فبادر إليه فيلبس وسمعه يقرأ النبي إشعياء. فقال ألعلك تفهم ما أنت تقرأ. فقال كيف يمكنني إن لم يرشدني أحد، وطلب إلى فيلبس أن يصعد ويجلس معه. وأما فصل الكتاب الذي كان يقرأه فكان هذا، مثل شاة سيق إلى الذبح ومثل خروف صامت أمام الذي يجزه هكذا لم يفتح فاه. في تواضعه انتزع قضاؤه وجيله من يخبر به لأن حياته تنتزع من الأرض. فأجاب الخصيُّ فيلبس وقال أطلب إليك، عن من يقول النبي هذا، عن نفسه أم عن واحد آخر. ففتح فيلبس فاه وابتدأ من هذا الكتاب فبشره بيسوع. راجع (إشعياء ٥٣: ٧، ٨) [ظُلِمَ أَمَّا هُوَ فَتَذَلَّلَ وَلَمْ يَفْتَحْ فَاهُ كَشَاةٍ تُسَاقُ إِلَى الذَّبْحِ وَكَنَعْجَةٍ صَامِتَةٍ أَمَامَ جَازِّيهَا

فَلَمْ يَفْتَحْ فَاهُ [٨] مِنَ الضُّغْطَةِ وَمِنَ الدَّيْنُونَةِ أُخِذَ. وَفِي جِيلِهِ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّهُ قُطِعَ مِنْ أَرْضِ الأَحْيَاءِ أَنَّهُ ضُرِبَ مِنْ أَجْلِ ذَنْبِ شَعْبِي؟] وعن قيامته من بين الأموات (أعمال٢: ٢٢-٣٦) [أَيُّهَا الرِّجَالُ الإِسْرَائِيلِيُّونَ اسْمَعُوا هَذِهِ الأَقْوَالَ: يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ رَجُلٌ قَدْ تَبَرْهَنَ لَكُمْ مِنْ قِبَلِ اللهِ بِقُوَّاتٍ وَعَجَائِبَ وَآيَاتٍ صَنَعَهَا اللهُ بِيَدِهِ فِي وَسَطِكُمْ كَمَا أَنْتُمْ أَيْضاً تَعْلَمُونَ [٢٣] هَذَا أَخَذْتُمُوهُ مُسَلَّماً بِمَشُورَةِ اللهِ الْمَحْتُومَةِ وَعِلْمِهِ السَّابِقِ وَبِأَيْدِي أَثَمَةٍ صَلَبْتُمُوهُ وَقَتَلْتُمُوهُ [٢٤] اَلَّذِي أَقَامَهُ اللهُ نَاقِضاً أَوْجَاعَ الْمَوْتِ إِذْ لَمْ يَكُنْ مُمْكِناً أَنْ يُمْسَكَ مِنْهُ [٢٥] لأَنَّ دَاوُدَ يَقُولُ فِيهِ: كُنْتُ أَرَى الرَّبَّ أَمَامِي فِي كُلِّ حِينٍ أَنَّهُ عَنْ يَمِينِي لِكَيْ لاَ أَتَزَعْزَعَ [٢٦] لِذَلِكَ سُرَّ قَلْبِي وَتَهَلَّلَ لِسَانِي حَتَّى جَسَدِي أَيْضاً سَيَسْكُنُ عَلَى رَجَاءٍ [٢٧] لأَنَّكَ لَنْ تَتْرُكَ نَفْسِي فِي الْهَاوِيَةِ وَلاَ تَدَعَ قُدُّوسَكَ يَرَى فَسَاداً [٢٨] عَرَّفْتَنِي سُبُلَ الْحَيَاةِ وَسَتَمْلأُنِي سُرُوراً مَعَ وَجْهِكَ [٢٩] أَيُّهَا الرِّجَالُ الإِخْوَةُ يَسُوغُ أَنْ يُقَالَ لَكُمْ جِهَاراً عَنْ رَئِيسِ الآبَاءِ دَاوُدَ إِنَّهُ مَاتَ وَدُفِنَ وَقَبْرُهُ عِنْدَنَا حَتَّى هَذَا الْيَوْمِ [٣٠] فَإِذْ كَانَ نَبِيّاً وَعَلِمَ أَنَّ اللهَ حَلَفَ لَهُ بِقَسَمٍ أَنَّهُ مِنْ ثَمَرَةِ صُلْبِهِ يُقِيمُ الْمَسِيحَ حَسَبَ الْجَسَدِ لِيَجْلِسَ عَلَى كُرْسِيِّهِ [٣١] سَبَقَ فَرَأَى وَتَكَلَّمَ عَنْ قِيَامَةِ الْمَسِيحِ أَنَّهُ لَمْ تُتْرَكْ نَفْسُهُ فِي الْهَاوِيَةِ وَلاَ رَأَى جَسَدُهُ فَسَاداً [٣٢] فَيَسُوعُ هَذَا أَقَامَهُ اللهُ وَنَحْنُ جَمِيعاً شُهُودٌ لِذَلِكَ [٣٣] وَإِذِ ارْتَفَعَ بِيَمِينِ اللهِ وَأَخَذَ مَوْعِدَ الرُّوحِ الْقُدُسِ مِنَ الآبِ سَكَبَ هَذَا الَّذِي أَنْتُمُ الآنَ تُبْصِرُونَهُ وَتَسْمَعُونَهُ [٣٤] لأَنَّ دَاوُدَ لَمْ يَصْعَدْ إِلَى السَّمَاوَاتِ. وَهُوَ نَفْسُهُ يَقُولُ: قَالَ الرَّبُّ لِرَبِّي اجْلِسْ عَنْ يَمِينِي [٣٥] حَتَّى أَضَعَ أَعْدَاءَكَ مَوْطِئاً لِقَدَمَيْكَ [٣٦] فَلْيَعْلَمْ يَقِيناً جَمِيعُ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ أَنَّ اللهَ جَعَلَ يَسُوعَ هَذَا الَّذِي صَلَبْتُمُوهُ أَنْتُمْ رَبّاً وَمَسِيحاً]. (راجع مزمور ١٦: ٨-١١) [جَعَلْتُ الرَّبَّ أَمَامِي فِي كُلِّ حِينٍ. لأَنَّهُ عَنْ يَمِينِي فَلاَ أَتَزَعْزَعُ. [٩] لِذَلِكَ فَرِحَ قَلْبِي وَابْتَهَجَتْ رُوحِي. جَسَدِي أَيْضاً يَسْكُنُ مُطْمَئِنّاً [١٠] لأَنَّكَ لَنْ تَتْرُكَ نَفْسِي فِي الْهَاوِيَةِ. لَنْ تَدَعَ تَقِيَّكَ

يَرَى فَسَادًا "تُعَرِّفُنِي سَبِيلَ الْحَيَاةِ. أَمَامَكَ شِبَعُ سُرُورٍ. فِي يَمِينِكَ نِعَمٌ إِلَى الأَبَدِ]. (مزمور ١١٠: ١) قَالَ الرب لِرَبِّي اجْلِسْ عَنْ يَمِينِي حَتَّى أَضَعَ أَعْدَاءَكَ مَوْطِئاً لِقَدَمَيْكَ

دعا المسلمون اليهود والمسيحيين للإيمان بمحمد فأجابوا بأنه لا يوجد في كتبهم المقدسة أية نبوءة عنه. ردَّ المسلمون على ذلك بقولهم طالما أن الكتب المقدسة لا تؤيد ادعاء القرآن فلابدَّ أن تكون قد فُسِّرت خطأً أو قد حُرِّف نصّها. إذاً الهدف الأول من حجة تحريف التوراة والإنجيل هو دعم ادعاء القرآن بأن مجيء الرسول قد سبق وأبلغت عنه الكتب المقدسة.

حاول المسلمون إسناد هذه الحجة إلى القرآن والحديث ولهذا علينا أن ندرس ما جاء في القرآن والحديث. بخصوصها سنركز في هذا الفصل على تعليم القرآن بهذا الشأن، وفي الفصل التالي سننظر إلى الأحاديث ذات الصلة.

ما جاء في القرآن بشأن الكتب المقدسة

واجه محمد في مكة الكثير من المعارضة، ويبدو أنه قد ساورته الكثير من الشكوك حول رسالته، ولكي يُطمئنه الله وجّهه إلى الذين أُعطوا الكتب المقدسة من قبله:

> [فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ] (يونس ٩٤)

كذلك وُجِّه العرب المتشككون إلى اليهود والمسيحيين لتأكيد كون الوحي الجديد هو حقاً من الله: [وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ] (النحل ٤٣؛ راجع الأنبياء ٧).

ويحث القرآن أهل الكتاب، أي اليهود والمسيحيين، على قبول وحي الله الأخير الذي أودع إلى محمد (البقرة ٤١؛

النساء ٤٧). هذه الدعوة تستند إلى أن القرآن هو وحي الله باللغة العربية (الشعراء ١٩٢-١٩٩؛ الأحقاف ١٢)، وهو يصدق ما سبق أن أوحي به في التوراة والإنجيل (البقرة ٨٩، ٩١، ٩٧، ١٠١؛ آل عمران ٣، ٨١؛ المائدة ٤٨؛ الأنعام ٩٢؛ فاطر ٣١). والسؤال الذي يطرح نفسه بنفسه هو: لو كان الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل) قد حُرِّف فكيف يصدقه القرآن؟

لم يستجب أغلب أهل الكتاب لدعوة القرآن بشكل إيجابي (البقرة ٤١، ٨٧، ٨٩، ٩٣، ١٠١) ولم يعتنقوا الإسلام ديناً. ومع ذلك تابع القرآن حث المسلمين على أن يؤمنوا بما جاء في الإنجيل (آل عمران ٨٤، ١١٩؛ النساء ١٣٦). إضافة إلى ذلك يحث القرآن الكريم اليهود والمسيحيين أن يحكموا استناداً إلى ما أوحي به في التوراة والإنجيل (المائدة ٤٥، ٤٧) وأن يطيعوا تعاليم كتبهم المقدسة (المائدة ٦٦، ٦٨) لأن ما جاء فيها هو [هُدًى وَنُورٌ] من الله (المائدة ٤٦)، ولو فعلوا ذلك فلا خوف عليهم يوم الدين:

> [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ] (البقرة ٦٢؛ راجع المائدة ٦٩)

على ضوء هذه الخلفية علينا أن ندرس النصوص القرآنية التي تنتقد أهل الكتاب. هناك ما يناهز عشرين نصاً يُنتقد فيها اليهود وفي أحيان نادرة يُنتقد المسيحيون أيضاً. هذه النصوص القرآنية تعود للفترة التي كان فيها محمد في المدينة فهي تعكس الخلاف بين اليهود والمسلمين هناك. والكثير من هذا النقد ورد بصورة عامة (البقرة ١٢، ٥٩، ١٥٩، ١٧٤؛

آل عمران ٧١، ١٨٧) ولكن بعضه كان أكثر تحديداً. هذه النصوص تدعي بأن اليهود:

* أخفوا صفة الإسلام في إيمان إبراهيم بالله (البقرة ١٤٠؛ راجع البقرة ١٣٥؛ آل عمران ٦٥-٦٧)
* يعرفون أن القبلة في الصلاة قد تغيرت ومع ذلك يرفضون استبدال القدس بمكة (البقرة ١٤٤-١٤٦)
* يُظهرون بعض مخطوطات التوراة ويُخفون أخرى (الأنعام ٩١)
* يقدمون نصوصاً كتبوها لأغراض شريرة على أنها تضم وحياً إلهياً (البقرة ٧٩)
* يُرتلون بعض الكتابات الدينية بنفس طريقة الكتب المقدسة ليخدعوا السامعين (آل عمران ٧٨)
* يُخفون جزءاً من كتبهم المقدسة (المائدة ١٥)

ويستخدم القرآن عدة أفعال ليصف مواقف أهل الكتاب المضللة (أخفى، بدّل، كتم، نسى). ولكن أقوى هذه الأفعال بدون شك هو "حرّف". في ثلاث آيات من أصل أربع آيات استخدم هذا الفعل في عبارة "يحرّفون الكلام عن مواضعه" التي تعني إما إساءة الفهم والتفسير أو تغيير النصّ بذاته. في الكتابات الدينية الإسلامية يُستخدم الفعل "حرّف" والاسم "تحريف" بمعنى التلاعب بالكتب المقدسة ونتائج هذا التلاعب. سننظر إلى المواقع الأربعة في القرآن التي ورد فيها فعل "حرّف" ونحاول فهم ما تعنيه حقيقة هذه الكلمة. ويستند تفسيرنا لهذه الآيات على "التفسير الكبير" للرازي الذي كما أشرنا يعتبره المسلمون أحد مراجع التفسير الرئيسية.

البقرة ٧٥

[أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ]

يذكر القرآن أن شعب إسرائيل غالباً ما عصوا أوامره وعوقبوا على ذلك (البقرة ٤٠-١٠٣). ترد الآية السابق ذكرها ضمن قائمة طويلة لطرق عصيان اليهود لله، وهي الأولى من خمس آيات تصف موقفهم تجاه كتبهم المقدسة (البقرة ٧٥-٧٩)، والاتهام هو أنهم حرّفوا بطريقة أو بأخرى كلمة الله. في تعليقه على هذه الآية يبدأ الرازي بالاستشهاد بأحد أشهر العلماء المسلمين وهو القاضي عبد الجبار (٤١٥/١٠٢٤) الذي يقترح طريقتين لفهم تحريف التوراة. الأولى هي التحريف في اللفظ والثانية هي التحريف في المعنى. يعتبر الرازي أن تحريف النص (أو اللفظ) كان مستحيلاً لأن كلمة الله (التوراة) نقلت بالتواتر أي بطريقة يُعوّل عليها كما هو الحال بالنسبة للقرآن. مفهوم التواتر مهم في الإسلام كما هو في المسيحية ويعني "النقل المتتابع" الذي يدل على وجود سلاسل متسلسلة وغير منقطعة من الناس الذين يوثق بهم لنقل الحديث أو النص بدقة وأمانة. ويقاس مدى موثوقية أي نص بموثوقية الذين ينقلونه إلى الجيل التالي بصيغته الأصلية دون أي تشويه. يضيف الرازي بأنه كان من الممكن أن يُحرّف نص التوراة قبل أن يتم نقله نقلاً متتابعاً، ولكنه يضيف بأن مدى هذا التحريف كان بالضرورة محدوداً لأن الله لم يكن ليسمح لكلمته أن تتغير بحيث لا تبقى جديرة بالثقة.

والطريقة الثانية التي كان يمكن أن تُحرّف بها التوراة هي تحريف المعنى. ويقترح الرازي أن هذا النوع من التحريف ربما يكون قد حصل قبل مجيء رسول الله (محمد) لأنه لم

يكن في التوراة إشارة واضحة له. ولكن منذ مجيء النبي أصبح من المستحيل تحريف معاني كلام الله، كما أنه يستحيل الآن إساءة تفسير تعاليم القرآن المتعلقة بتحريم الأطعمة (مثل أكل لحم الخنزير والحيوان الميت والدم). في هذه المرحلة لا يذكر الرازي أي التفسيرين يفضل تحريف النص أم تحريف المعنى.

متى تمّ التحريف وما الذي تمّ تحريفه؟

هنا أيضاً يتصور الرازي احتمالين: إما أن التحريف حصل في عهد موسى وفي هذه الحالة لا يكون له علاقة بمحمد، أو في عهد محمد وفي هذه الحالة ما تم تحريفه كان ما جاء في التوراة إما بشأن محمد أو فيما يتعلق بالشريعة (كالعقاب الشرعي في حالة الزنى). ويقول الرازي بأن القرآن لا يُحدد بالضبط ما الذي تمّ تحريفه.[٢٥]

النساء ٤٦

[مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً]

يلوم هذا النص بعض اليهود على تحريف كلام الله. ومن الواضح جداً بسبب استخدام كلمة "من" أن الإتهام موجه إلى فئات محددة من اليهود الذين لا تتهمهم هذه الآية بتحريف النص نفسه وإنما تلومهم على كيفية تلاوته (ليّاً بألسنتهم) ولا يُعرف بالتأكيد ما هو المقصود. من المعروف أن استجابة اليهود إلى تعاليم النبي لم تتسم بالاحترام بل كانت مُخادعة.[٢٦]

---

[٢٥] رازي ٢/٣، ص ١٢٣-١٢٤.

[٢٦] يُحتمل أن تشير عبارة "سمعنا وعصينا" إلى العهد الذي قطعه اليهود أمام الله بعد إعطاء الوصايا العشرة لموسى "نسمع ونعمل" (تثنية ٥ :٢٧). والملاحظ أن هذه الكلمات في اللغة العبرية "وشمعنو وعسينو" مقاربة جداً من حيث اللفظ

يورد الرازي ثلاثة احتمالات لكيفية حصول هذا التحريف:

١) الاستعاضة عن كلمة بكلمة أخرى، وكمثال عن ذلك يشير الرازي إلى ما عمله اليهود بشأن الحدّ (أو العقاب) في حالة الزنى حين أبدلوا كلمة "رجم" بكلمة أكثر شمولاً "الحدّ". هذا ما تشير إليه سورة البقرة الآية ٧٩ "فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله". قد يتساءل البعض هل أن ذلك ممكن علماً بأن الكتب المقدسة تم تناقل كل حرف وكل كلمة فيها بالتتابع في الشرق وفي الغرب؟ يأخذ الرازي هذا الاعتراض بجدية ويجيب عليه بحذر: إن عدد الناس في ذلك الوقت كان قليلاً وعدد العلماء كان قليلاً أيضاً.

٢) إعطاء شُبه (أو حُجج) باطلة وتأويلات فاسدة وتحريف المعنى بحيل لفظية. يضيف الرازي بأن هذا ما يفعله بعض المسلمين بآيات القرآن التي تتعارض مع مذاهبهم. يرى الرازي أن هذا الاحتمال هو الأصح.

٣) تشويه أقوال النبي: لجأ اليهود بعدما سألوا الرسول بعض الأسئلة إلى إيلاغ أجوبته بشكل غير صحيح.[٢٧]

المائدة ١٣

[فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ]

هنا يُلام اليهود على أنهم كسروا العهد الذي قطعه الله معهم بواسطة موسى. وإحدى طرق كسر العهد كانت بإظهار

للكلمات العربية "سمعنا وعصينا"، وقد يكون السامعون العرب قد أساءوا فهم هذه الكلمات.

[٢٧] رازي ٥/١٠، ص ٩٥.

عدم احترامهم لكلام الله ونبذ وصاياه. مـرة أخـرى يعتبـر الرازي أن تحريف التوراة يجب أن يُفهم على أنه إما تأويـل باطل أو تغيير اللفظ. ويفضل الـرازي المفهـوم الأول لأن الكتاب الذي وصل بالتواتر أو النقل المتتابع لا يمكن أن يكون قد تعرض لتحريف النص [٢٨]. وعلى هذا يُقرر الرازي بشكل لا لَبْس فيه قناعته حول أصالة نصوص الكتب المقدسة -كما في حالة القرآن- التي قد نُقلت بطريقة التواتر أي من خـلال عدة سلاسل غير مُنقطعة.

المائدة ٤١

[يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِـي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُـؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هِـادُواْ سَـمَّاعُونَ لِلْكَـذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِـمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُواْ]

تطلب هذه الآية من النبي بألاّ يأبه بموقف بعض العـرب واليهود. فالعرب قد ارتدّوا إلى ديانتهم الأولى لأنهم لم يكونوا قد اعتنقوا الإسلام حقاً، أما اليهود فإنهم لم يرفضـوا محمـداً كنبي فحسب بل كانوا يُحاولون الحط من قدره وتشويه سمعة رسالته.

يُلاحظ الرازي أن معنى الاتهام الموجه إلى اليهود يعتمـد على الطريقة التي نفهم بها حرف اللام في عبارة "سـمّاعون للكذب سمّاعون لقوم آخرين". الاحتمال الأول هو أنهم يقبلون تعليم زعمائهم الكذبة عن الإسلام وبذلك يُحرّفـون التـوراة ويفترون على شخص محمد، والاحتمال الثاني هو أنهم يأتون ليسألوا الرسول نيابةً عن أناس آخرين بغية تحوير تعليمه أو

---

[٢٨] رازي ١١/٦، ص ١٤٨.

الإضافة إليه أو الحذف منه أو تغييره. يوضّح الرازي الجزء الأخير من الآية بالإشارة إلى حادثة كانت للنبي مع بعض اليهود في المدينة [٢٩]. ارتكب رجل وامرأة من يهود خيبر الفاحشة، وبسبب مكانتهما الاجتماعية المتميزة فإن زعماء اليهود لم يرغبوا في رجمهما كما يجب بحسب التوراة. عوضاً عن ذلك أرسلوا وفداً إلى محمد ليسألوه حول عقوبة الزنى. وقد فُوض هذا الوفد بقبول جواب محمد لو قال أن الزناة يجب أن يُجلدوا وبرفض جوابه إن كان يقتضي الرجم. أجاب محمد بأن عليهم أن يُرجموا لأن هذا ما تطلبه التوراة. وقد تم رجم الزانيين بأمر محمد أمام جامعه. يستنتج الرازي بأن اليهود حرّفوا كتابهم المقدس عن طريق استبدال عقوبة الرجم بعقوبة الجلد في حالة الزنى [٣٠].

خلاصات

ماذا نستنتج من النصوص الأربعة عن تحريف الكتب المقدسة؟ سنحاول الإجابة على هذا السؤال بدراسة أربع نقط.

١) من الذي يُلام لإساءة استخدام كلام الله ؟

واضح أن اليهود وليس المسيحيين هم المقصودون في كل من الآيات القرآنية الأربع التي مرت علينا. وهذا ما تؤكده حقيقتان.

الأولى: كل الآيات القرآنية عن تحريف الكتاب موجودة في السور المدنية (باستثناء الأنعام ٩١؛ الأعراف ١٦٢، ١٦٥ التي يعتبرها مفسرو القرآن مدنية أيضاً). هذه الحقيقة تُبرز أن المحيط التاريخي لنقد التوراة هو الخلاف بين المسلمين واليهود الذي نشأ في المدينة بعد هجرة الرسول إليها.

---

[٢٩] راجع مسلم، حدود ٦: ٢/٧٣٩/٤٥٣٦.

[٣٠] رازي ١١/٦، ص ١٨٣-١٨٤.

الثانية: الذين يُنتقدون هم إما "أهل الكتاب" (البقـرة ١٤٠، ١٥٩، ١٧٤؛ آل عمران ٧١، ١٨٧؛ المائدة ١٥) أو "اليهود" (البقرة ٤٢، ٥٩، ٧٥، ٧٩، ١٤٦؛ آل عمران ٧٨؛ النسـاء ٤٦؛ المائدة ١٣، ٤١؛ الأنعام ٩١؛ الأعراف ١٦٢، ١٦٥). لا توجد إلا آية واحدة بشأن النصارى وهي تتهمهم بأنهم نسوا جزءاً من الرسالة التي أعطيت لهم (المائدة ١٤؛ راجع البقرة ١٤٠).

٢) متى حصل التحريف ؟

تدل معظم النصوص على أن التحريف حصل فـي عهـد الرسول. هذا ما تؤكده آيات عديدة (البقـرة ٤٢، ٧٩، ١٤٠، ١٤٦، ١٥٩، ١٧٤؛ آل عمران ٧١، ٧٨؛ المائدة ٤١؛ الأنعام ٩١) مثلاً:

> [وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَـا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ{٦٩} يَا أَهْـلَ الْكِتَـابِ لِـمَ تَكْفُـرُونَ بِآيَـاتِ اللّـهِ وَأَنـتُمْ تَشْهَدُونَ{٧٠} يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَـقَّ بِالْبَاطِـلِ وَتَكْتُمُـونَ الْحَـقَّ وَأَنـتُمْ تَعْلَمُـونَ] (آل عمران ٦٩-٧١)

إلا أن هناك بعض الآيات التي تشير إلـى أن معاصـري موسى هم أيضاً أساءوا إلى وحي الله (البقرة ٥٩؛ الأعـراف ١٦٢، ١٦٥). هذا هو رأي الـرازي الـذي يُحبـذ إسـناد التحريف إلى الأحداث التي أحاطت برسالة محمد، ولو أنه لا يستبعد احتمال التحريف في عهد موسى.

٣) ما الذي تمّ تحريفه؟

آية واحدة فقط من الآيات الأربع تذكر بالتحديد كلمـة الله على أنها حُرِّفت (البقرة ٧٥). يعتبر الرازي أن هـذه الآيـة تشير إما إلى ما تقوله التوراة عن محمد أو إلى عقوبة الموت

للزناة. إن القرآن يصف جميع الكتب المقدسة (التوراة والإنجيل والقرآن) بأنها كلام الله. ولهذا يمكن أن تلمّح هذه الآية إلى القرآن الذي أساء اليهود اقتباسه في محاولتهم لتشويه سمعته والطعن بمن جاء به. أما الآيات الثلاث الأخرى فإنها تشير إلى "الكلم" دون أية تفاصيل. وحسب الرازي فإن ما تم تحريفه قد يكون كلام الله لليهود (أي التوراة) أو كلام الله الذي جاء على لسان محمد (أي القرآن).

٤) كيف حُرّف الكتاب ؟

رأينا أن النصوص القرآنية غير واضحة حول كيفية تحريف اليهود للتوراة. ويُقدم الرازي كما ذكرنا تفسيرين لذلك.

التفسير الأول: إن تعلق الأمر بمعنى النص فقد أصبح من المستحيل تحريف التوراة. منذ تنزيل القرآن أصبح من المستحيل إساءة فهم تعليم التوراة حول مجيء محمد مثلاً.

التفسير الثاني: إن كان التحريف يتعلق بالنص نفسه فهو محدود جداً (مثل الآية حول حدّ الزنى). لماذا ؟ لأن التوراة هي أولاً وبشكل أساسي كلام الله، فكما أن الله جدير بالثقة كذلك يجب أن تكون كلمته.

يُعلن الرازي بوضوح بأنه يُؤيد الاحتمال الأول والسبب أن الكتب المقدسة التي جرى نقلها بالتواتر لا يمكن أن تتعرض لتحريف نصوصها. والحقيقة أن الكتب المقدسة بما فيها التوراة والإنجيل قد نقلت بالتواتر والرازي لا يُجادل في هذه الحقيقة التي كانت مقبولة تماماً في زمانه.

الفصل الثالث

الحديث والتحريف

يؤمن المسلمون بـالله وبنبيّـه (الصّـف ١٠-١٢) وهـم يُطيعون الله وخاتم رسله (النساء ١٣-١٤). ويصف القـرآن محمداً بأنه أسوة حسنة لكل المسلمين (الأحزاب ٢١) ولكنه لا يذكر إلا نذراً يسيراً عن حياتـه. والسـنّة النبويـة (عـادات وممارسات الرسول) أُبلغت إلينا من خلال الأحاديث العديـدة (أخبار وأقوال محمد والصحابة). فالحديث هو تسجيل لتعـاليم وممارسات منسوبة غالباً إلى النبي وأحياناً إلـى الصـحابة. ويعتبر المسلمون السنة، أي ما جاء في الحـديث، كمصـدر أساسي للعقيدة والممارسات الإسلامية، وهذا المصـدر يلـي القرآن مباشرةً في قوته الشرعية. أما المسلمون الشيعة فلهـم مجموعاتهم الخاصة من الحديث النبوي.

يوجد تسع مجموعات قانونية للحديث جميعها كُتبت باللغة العربية. هذه الكتب التسعة تُقسم إلى ثلاث مجموعات:

- البخاري (٢٥٦/٨٧٠) ومسـلم (٢٦١/٨٧٥). تُعتبـر هاتان المجموعتان أكثر موثوقيـةً مـن بقيـة المجموعـات وتحملان نفس العنوان "صحيح".

- أبـو داوود (٢٧٥/٨٨٨)، إبـن ماجـه (٢٧٣/٨٨٦)، النسائي (٣٠٣/٩٠٥)، الترمذي (٢٧٩/٨٩٢). تُعـرف هـذه المجموعات بـ "سُنن" (جمع "سُنّة") وتعتبر معتمدة إلى حـدٍ كبير.

- مجموعات الدارمي (٨٦٨/٢٥٥) وهي معنونة "سنن" أيضاً، وإبن حنبل (٨٥٥/٢٤١) المعنّونة "مُسند" ومالك (٧٩٥-١٧٩) المعنونة "مُوطأ". تحتوي هذه المجموعات على العديد من الأحاديث غير الموثوق بأصالتها.[٣١]

تضم مجموعة البخاري حوالي عشرة آلاف حديث، أكثر بكثير من مجموعة مالك ولكن أقل بكثير مما تضمه مجموعة إبن حنبل. أغلب الأحاديث موجودة في أكثر من مجموعة واحدة وكثيراً ما تورد نفس المجموعة صيغ مختلفة لنفس الحديث. بالرغم من كل هذه المجموعات فإنها لا تشكل سجلاً شاملاً للأحاديث. هناك العديد من الأحاديث بما فيه أحاديث أصيلة غير موجودة في الكتب التسعة. وقد تم نقل هذه الأحاديث من خلال قنوات أخرى وبصورة خاصة من خلال كتب تفسير القرآن كتفسير الطبري مثلاً (٩٢٣/٣١٠) .

ويستخدم علماء الحديث عدة معايير لتقييم الأصالة التاريخية لكل حديث وأهم هذه المعايير هو معيار التواتر (الذي أشرنا إليه في الفصل السابق) أي وجود سلاسل مستقلة وغير منقطعة لناقلين موثوق بهم. تسمى كل سلسلة من الناقلين "سند" وهي تبدأ من الرسول نزولاً إلى جامعي الحديث (كالبخاري مثلاً) الذين دونوا الأحاديث. بشكل عام هناك ثلاث درجات لموثوقية الحديث: "صحيح"، "حسن"، "ضعيف". أما الحديث الذي نسب خطأ إلى النبي فيُسمى "موضوع". ويتفق علماء الحديث على موثوقية بعض الأحاديث ولكنهم يناقشون أصالة العديد من الأحاديث دون الوصول إلى قرار حاسم بشأنها.

---

[٣١] تمت ترجمة مجموعات البخاري ومسلم وأبو داوود وإبن ماجه ومالك إلى اللغة الإنجليزية، و"صحيح البخاري" متاح في طبعة عربية/إنجليزية في تسعة مجلدات، وكذلك "سُنن إبن ماجة" في خمسة مجلدات.

يردد الحديث تعاليم القرآن أو يشرح فقرات منه أو يتمم ويفصّل المبادئ القرآنية. هناك الكثير من العقائد والممارسات الشرعية الإسلامية التي تستند ليس إلى القرآن بل الى الحديث بما فيه:

- الختان (بخاري، لباس ٦٤: ٣/١٢١٤/٥٩٥٢)
- الصلوات الفرضية الخمس (بخاري، صلاة١:١/٧٤/٣٥٠)
- شفاعة محمد يوم الدين (بخاري، توحيد ١٩: ٣/١٤٩٥/٧٤٩٩)
- إسراء محمد ليلاً إلى السماء (بخاري، مناقب الأنصار ٤٢: ٢/٧٦٤/٣٩٣٥)
- معجزات محمد (بخاري، مناقب الأنصار ٢٦: ٢/٧٠٢-٧٠٦/٣٦١٢-٣٦٢٧)
- أسماء الله الحسنى التسعة والتسعون (بخاري، توحيد ١٢: ٣/١٤٩٢/٧٤٨١)
- حدّ (أو عقوبة) الردّة (بخاري، جهاد ١٤٩: ٢/٥٨٤/٣٠٥٤)
- حدّ الزنى (مسلم، حدود ٣: ٢/٧٣٣/٤٥٠٩)
- عودة المسيح إلى الأرض في آخر الأيام (بخاري، أنبياء ٥٢: ٢/٦٨١/٣٤٨٧)

معظم الحديث يروي أقوال النبي نفسه ولهذا يُسمى "الحديث النبوي"، أما "الحديث القدسي" فهو يروي أقوال إلهية تفوّه بها النبي بإلهام من الله.

ما جاء في الحديث عن التحريف

بعد أن تعرفنا على أهمية الحديث نعود الآن إلى موضوع الفصل السابق. مـاذا يقـول الحـديث عـن اتهـام اليهـود والمسيحيين بتحريف التوراة والإنجيل؟ يذكر الحديث أن النبي وصحابته عرفوا بعض المسيحيين وكانت لهم اتصالات عديدة باليهود في الجزيرة العربية. وتبعاً لذلك فإنه من المتوقـع أن تكون مسألة تحريف أو عدم تحريف الكتب المقدسـة إحـدى مسائل النزاع الأساسية. مما يثير العجب وحتى خيبة الأمـل الى حدّ ما أن عدداً قليلاً من الأحاديـث يـدور حـول هـذه المسألة. هذه الندرة في الأحاديث بحد ذاتها هي ذات مغـزى فهي تشير الى أن أصالة الكتاب المقدس لـم تشـكل مشـكلة كبيرة بالنسبة لجماعة المسلمين الأوائل.

الطبري

يُعتبر تفسير القرآن للطبري من التفاسير الرصينة للقرآن. في تفسيره لسورة المائدة الآية ٦٨ يستشـهد الطبـري بـابن عباس، أحد صحابة النبي. جاءت مجموعة من اليهود تسـأل الرسول عما إذا كان يؤمن بالتوراة حقيقةً.

> **جاء رسول الله (ص) رافع بن حارثة، وسلام بن مسكين، ومالك بن الصيف، ورافـع بـن حرملـة، فقالوا:**
>
> **- يا محمد ألست تزعم أنك على ملّة إبـراهيم ودينه، وتؤمن بما عندنا من التوراة، وتشـهد أنـها من الله حق؟ فقال رسول الله:**

– بلى، ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها، مما أخذ عليكم من الميثاق، وكتمتم منها ما أمرتم أن تبينوه للناس، وأنا بريء من إحداثكم. قالوا:

– فإنا نأخذ بما في أيدينا، فإنا على الحق والهدى، ولا نؤمن بك، ولا نتبعك.

فأنزل الله: "قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم" ... إلى "فلا تأس على القوم الكافرين" (المائدة ٦٨).

يؤكد النبي في هذا الحديث إيمانه بصحة التوراة إلا أنه ينتقد موقف اليهود تجاه التوراة الموصوف بالأفعال "أحدث" و"جحد" و"كتم". ليس في هذه الأفعال الثلاثة، التي يستخدم القرآن ثالثها فقط في الآيات المتعلقة بالتحريف، ما يدل على أن اليهود قد غيّروا نصّ التوراة. هل يعني هذا أن النبي كان على علمٍ باحترام اليهود للنصوص المقدسة بحيث لم يشكّك في أصالتها؟

الإمام الدارمي

الحديث الثاني أورده عباد بن عباد وهو من التابعين (أي مسلم من الجيل الثاني). يقول عباد إن عمر بن الخطّاب (ثاني الخلفاء) دعا المسلمين إلى إجلال القرآن والإلتزام بأحكامه. وفي سياق حديثه هاجم "أهل الكتاب" وخاصة زعمائهم الذين يتمسكون بامتيازاتهم إلى درجة الضرر بتعاليم الكتب المقدسة.

ولو أن الأحبار والرهبان لم يتّقوا زوال مراتبهم وفساد منزلتهم بإقامة الكتاب وتبيانه ما حرّفوه ولا كتموه. ولكنهم لمّا خالفوا الكتاب بأعمالهم

> التمسوا أن يخدعوا قومهم عما صنعوا مخافة أن تفسد منازلهم وأن يتبين للناس فسادهم. فحرّفوا الكتاب بالتفسير وما لم يستطيعوا تحريفه كتموه فسكتوا عن صنيع أنفسهم إبقاءً على منازلهم وسكتوا عما صنع قومهم مصانعةً لهم. [وَقَدْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ] (آل عمران ١٨٧) بل مالئوا عليه ورققوا لهم فيه.٣٢

هذا الحديث مليء بالكلمات القرآنية التي تُظهر درجة التأثير القرآني فيه. الاتهام الموجه للأحبار والرهبان يُذكرنا بالاتهام ضد المسيحيين الذين اتخذوا من قادتهم أرباباً لهم (التوبة ٣١). هؤلاء القادة الدينيون أكلوا أموال الناس بالباطل (التوبة ٣٤) بدلاً من الالتزام بميثاق الله (آل عمران ١٨٧؛ المائدة ١٣-١٤) والالتزام المخلص للتوراة والإنجيل. لقد غطّوا على تصرفاتهم عن طريق تحريف وكتم الكتب المقدسة. يوضح هذا الحديث حافز التحريف في الكتب المقدسة من قبل الرؤساء اليهود والمسيحيين الذين أرادوا إدامة سيطرتهم على رعيتهم وعدم إظهار حياتهم التي كانت تسير على خلاف تعاليم هذه الكتب. لذلك لجأ المسؤولون في كلا الجماعتين إلى ممارسات تستوجب اللوم. يذكر هذا الحديث صيغتين للتحريف. فهو يخبرنا أن ذوي المقامات الرفيعة حرّفوا الكتب المقدسة ليس بتغيير نصوصها وإنما بالإساءة المقصودة لفهمها وكذلك بكتم ما كان واضحاً وغير قابل لأن يُساء فهمه. بما أن هذا الحديث مُشبع بحرف وروح

---

[٣٢] دارمي، مقدمة ٥٦.

القرآن فإن الضوء الذي يسلّطه على معنى التحريف في النصوص القرآنية ذو قيمة عالية جداً.

الإمام البخاري

لاحظ ابن عباس أن بعض المسلمين عقدوا مناظرات مع اليهود حول أمور الدين. وقد كان قلقاً من النتائج المحتملة لهذه المناظرات فحاول أن يثني المسلمين عن الانخراط في مثل هذه النقاشات:

> يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أُنزل على نبيه (ص) أحدث الأخبار بالله تقرؤنه لم يشب. وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله وغيروا بأيديهم الكتاب فقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً [راجع البقرة ٧٩]. أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم ولا والله ما رأينا منهم رجلاً قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم.[٣٣]

ليس صعباً أن نفهم قلق ابن عباس بشأن تأثير اليهود على جماعة المسلمين الفتية باقتباسه نصاً قرآنياً ناقداً لأهل الكتاب (البقرة ٧٩). لذلك قصد تشويه سمعة اليهود وثني المسلمين عن التحدث معهم فكانت حجته أن القرآن بكونه آخر الكتب المقدسة التي أوحاها الله فهو أشمل مما أوحي سابقاً. ولكن قد يتساءل المرء عن السبب الذي دعاه الى محاولة ثني المسلمين عن مناقشة أهل الكتاب؟ ألا يحث القرآن المسلمين على الرجوع إلى أهل الكتاب لو كان لديهم شك في الوحي الذي جاءهم (يونس:٩٤؛ النحل ٤٣)؟ جاء أيضاً عن ابن عباس في

---

[٣٣] بخاري، شهادات ٣٠: ١/٥١٠/٢٧٢٦.

تفسير له لسورة النساء الآية ٤٦ ما يلي: "يُحرّفون يزيلون وليس أحد يزيل لفظ كتاب من كتب الله عزّ وجلّ ولكنهم يُحرّفونه يتأولونه على غير تأويله دراستهم تلاوتهم"[٣٤]. يوضح هذا الحديث أن ابن عباس كان ممّن يعتقدون ليس بالتحريف اللفظي للتوراة بل بتحريف المعنى إذ انه "لا مبدّل لكلمات الله" (الأنعام ٣٤).

جاء في حديث آخر أن اليهود كانوا يقرأون التوراة باللغة العبرية ويفسرونها للمسلمين باللغة العربية. عند إطلاعه على ذلك قال النبي: "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنّا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم" (راجع البقرة ١٣٦؛ العنكبوت ٤٦)[٣٥]. لقد كان النبي على الأقل مستعداً لسماع اليهود والمسيحيين عندما يتكلمون عن كتبهم المقدسة.

وفي حديث آخر رواه البخاري أيضاً حول التحريف جاء شرح الآية القرآنية التالية: [الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ] (البقرة ١٤٦). ما هو هذا الحق وكيف حُجب ومن فعل ذلك؟ نجد الجواب في الحديث التالي الذي جاء على لسان عبد الله بن عمر:

> **أن اليهود جاءوا إلى رسول الله (ص) فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا فقال لهم رسول الله (ص):**
>
> **- ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ فقالوا:**
>
> **- نفضحهم ويُجلدون. فقال عبد الله بن سلام:**

---

[٣٤] بخاري، توحيد ٥٥: ٣/١٥٣٠ (بدون رقم للحديث).

[٣٥] بخاري، اعتصام ٢٦: ٣/١٤٨٦/٧٤٥٠.

- كذبتم، إن فيها الرجم.

فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها. فقال له عبد الله بن سلام:

- ارفع يدك.

فرفع يده فإذا فيها آية الرجم. فقالوا:

- صدق يا محمد فيها آية الرجم.

فأمر بهما رسول الله (ص) فرُجما. قال عبد الله بن سلام:

- فرأيت الرجل يجنأ على المرأة يقيها الحجارة.[36]

يوضح الحديث في هذه الواقعة بشكل لا يقبل الشك أن نص التوراة لم يجرِ تغييره إذ يتهم اليهود بالكذب حول ما تقوله التوراة لحماية الزناة من اليهود من عقاب الرجم. ولهذا فإن التهمة الموجهة إليهم في الآية (البقرة ١٤٦) لها ما يبررها تاريخياً ولكن بما أن نص التوراة لم يُحرَّف فإن مدى الاتهام القرآني يبقى محدوداً ومحصوراً جداً.

الإمام ابن حنبل

الحديث الأخير ينبع من ملاحظات أوردها معاذ بن جبل بعد زيارته إلى أرض يسكنها العديد من المسيحيين. أرسله الرسول ليدعو إلى الإسلام في سوريا أو في اليمن. المحدّث

---

[36] بخاري، مناقب ٢٧: ٢/٧١٥/٣٦٧٨.

غير متأكد بشأن الموقع ولكن هذا غير مهم بالنسبة لمعنى الحديث الذي ورد بصيغتين أولاهما كما يلي:

> قدم معاذ اليمن أو قال الشام فرأى النصارى تسجد لبطارقتها وأساقفتها فروّأ في نفسه أن رسول الله (ص) أحق أن يُعظّم. فلما قدم قال:
>
> - يا رسول الله رأيت النصارى تسجد لبطارقتها وأساقفتها فروّأت في نفسي أنك أحق أن تُعظّم. فقال:
>
> - لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، ولا تؤدي المرأة حق الله عزّ وجلّ عليها كله حتى تؤدي حق زوجها عليها كله حتى لو سألها نفسها وهي على ظهر قتب لأعطته إياه.[٣٧]

إن مجموعة ابن حنبل هي أوسع مجموعة من بين مجموعات الحديث القانونية التسع. وأصالة العديد من الأحاديث المنسوبة للنبي في هذه المجموعة هي في موضع الشك. ولكن الحديث المذكور أعلاه موجود في مجموعتي أبي داوود وإبن ماجه اللتان هما أكثر اعتماداً [٣٨]. ما ينسبه هذا الحديث إلى الرسول بشأن واجبات المرأة تجاه زوجها هو بالتأكيد أمر مروّع يصعب قبوله على من يحترم ويحب زوجته. لهذه الواقعة صيغة ثانية في مجموعة إبن حنبل لا تدعو إلى الشك في أصالتها. عندما رأى معاذ النصارى يسجدون أمام بطارقتهم وأساقفتهم سألهم:

---

[٣٧] إبن حنبل، مسند الكوفيين، حديث رقم ١٨٥٩١.

[٣٨] إبن ماجه، نكاح ٤: ١٩٢٦/٢٧٠؛ أبو داوود، نكاح ٤١: ٢١٤٢/٣٦٢/١.

- لأي شيء تصنعون هذا؟ قالوا:

- هذا كان تحية الأنبياء قبلنا. فقلت:

- نحن أحق أن نصنع هذا بنبينا. فقال نبي الله (ص):

- إنهم كذبوا على أنبيائهم كما حرّفوا كتابهم إن الله عزّ وجلّ أبدلنا خيراً من ذلك السلام تحية أهل الجنة. [أي تحية "السلام عليكم"؛ راجع الأعراف ٤٦؛ يونس ١٠؛ يس ٥٨][٣٩]

هذا هو الحديث الوحيد الذي يُنتقد فيه "النصارى" على وجه التحديد لتحريفهم الإنجيل. إن الأنبياء المُشار إليهم في الحديث هم على الغالب أنبياء اليهود. في التوراة لم يكن غريباً أن يُحيًّا الوجهاء بالإنحناء لهم (تكوين ٢٣:٧، ١٢؛ خروج ١٨:٧). يدل هذا على إجلال الأشخاص ذوي المكانة المحترمة مثل الملوك (١صموئيل ٢٥: ٢٣، ٤١؛ ٢ صموئيل٩: ٦-٨؛ ١ ملوك١:١٦، ٢٣، ٣١، ٥٣) والأنبياء (٢ ملوك ٢: ١٥؛ ٤:٣٧) وحتى الوالدين (١ ملوك ٢: ١٩). والقرآن يذكر كذلك أن أخوة يوسف خرّوا ساجدين أمامه بعد معرفتهم لمكانته في مصر (يوسف ١٠؛ راجع تكوين ٤٤: ١٤).

حقاً إن يسوع المسيح علّم تلاميذه ألا يدعوا أحداً "سيدي" لأن لهم سيدٌ واحدٌ فقط كما أنهم جميعاً إخوةٌ (متى ٢٣: ٨). إضافةً لذلك فقد أوضح لهم معنى سيادته عندما غسل أقدامهم (يوحنا ١٣: ١-١٧) مظهراً لهم بصورة أذهلتهم أن "سيد

---

[٣٩] إبن حنبل، مسند الكوفيين، حديث رقم ١٨٥٩١.

القوم خادمهم" كما جاء على لسان الرسول [40]. يقرّ المسيحيون بأن قادتهم لا يسيرون كلهم على خطى المسيح في خدمة قومهم. إن كان هذا الحديث يعني أن قادة النصارى قد أفسدوا الإنجيل بإساءة استخدام السلطة على شعبهم فإنه يكرّر النقد الذي نجده في القرآن (التوبة ٣١، ٣٤). وعلى المسيحيين بشكل عام والقادة منهم بشكل خاص أن يتقبلوا هذا النقد المتعلّق بالتناقض بين أسلوب حياتهم وممارساتهم من جهة وتعاليم الإنجيل من جهة أخرى.

يمكن القول باختصار بأن مجموعات الحديث تتضمن عدداً محدوداً جداً من الأحاديث حول موضوع تحريف التوراة والإنجيل. هذه الأحاديث التي بحثناها تتهم اليهود والنصارى بإساءة فهم تعاليم كتبهم المقدسة، إلا أنها لا توحي البتة بأن نصوص هذه الكتب قد تمّ تحريفها.

---

[40] حديث معروف ولكن غير مذكور في كتب الحديث التسعة.

الفصل الرابع

نظريتان في معنى التحريف

رأينا أن هناك طريقتين رئيسيتين لفهم تعليم القرآن والحديث بشأن تحريف التوراة والإنجيل. وينقسم علماء المسلمين إلى فريقين تبعاً لوجهة النظر التي يتبنونها. الفريق الأول يدّعي أن اليهود والمسيحيين قد أساءوا تفسير الكتب المقدسة ولكن نصوص هذه الكتب أو على الأقل أغلبها أصيلة. والفريق الثاني يدّعي أن نصوص الكتاب المقدس قد تم تغييرها. هذا التغيير وإن لم يكن شاملاً يجعل الكتاب ككل لا يُعتمد عليه.

النظرية الأولى: تحريف المعنى

ينتمي بعض كبار المفكرين المسلمين إلى هذا الفريق مثل الرازي (٦٠٦/١٢٠٩)، الباقلاني (٤٠٣/١٠١٣)، ابن سينا (٤٢٨/١٠٣٧)، الغزالي (٥٠٥/١١١١)، والأكثر حداثة محمد عبده (١٣٢٣/١٩٠٥).

الإمام الرازي

يَعتبر فخر الدين الرازي أنه لا يمكن أن يكون نص التوراة أو الإنجيل قد حُرّف، وذلك لسببين. الأول ديني ويرتكز على واحدة من أهم صفات الله وهي أن الله صادق وكذلك ينبغي أن تكون كلمته، فإن سمح الله لكلمته أن تصبح غير موثوق بها فقد سمح بتقويض صدقه وهذا بالطبع غير مقبول. السبب الثاني الذي يورده الرازي هو تاريخي ويعتمد

على التواتر أو النقل المتتابع. إن مخطوطات الكتاب المقدس قد انتشرت إلى كافة أنحاء العالم وقدْ تم نقلها وتسليمها بسلاسل غير منقطعة مما يجعل تحريفها مستحيلاً. لهذا يُبقي الرازي احتمالاً واحداً وهو أن اليهود قد كتموا تعاليم التوراة المتعلقة بحدّ الزنى أو بصفات الرسول.[41]

الإمام الغزالي

أبو حامد الغزالي هو من علماء الدين المشهورين ومن كبار المتصوفين. يحاول في كتابه "الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل" إثبات أن المسيحيين قد أساءوا تفسير آيات الإنجيل التي تبدو وكأنها تصف المسيح بأنه ابن الله. يبني الغزالي نقاشه على نصوص من الإنجيل (وبصورة خاصة إنجيل يوحنا) مما يدل على أنه يقبل أصالته. يرى الغزالي وجوب مبدأين لتفسير الأناجيل بأسلوب صحيح. الأول أن النصوص المقبولة على أسس منطقية يجب أن تؤخذ حرفياً، والنصوص غير المقبولة يجب أن تفسّر مجازياً. الثاني هو وجوب بذل كل جهد ممكن للتوفيق بين النصوص التي تبدو متناقضة.[42]

يعني تطبيق المبدأ الأول على نصوص الإنجيل أنه طالما ألوهية المسيح في هذه النصوص تتعارض منطقياً مع وحدانية الله فإنه لا يمكن تفسيرها تفسيراً حرفياً وبالتالي لايمكن للمسيح أن يكون ابن الله إلا بالمفهوم المجازي. أما بالنسبة للمبدأ الثاني فإن على المرء أن يختار بين كون المسيح هو الله أو كونه إنساناً. بما أن هناك نصوص كثيرة تظهر إنسانية

---

[41] هذا الموجز لرأي الرازي يستند الى تفسيره لآيات التحريف في القرآن التي جرى البحث فيها في الفصل الثاني.
[42] غزالي، الرد، ص ٨.

المسيح فهذا لا يدع لنا مجالاً للشك، كما يقول الغزالي، في المعنى الحقيقي لتلك النصوص الكتابية التي قد توحي لأول وهلة بأن المسيح هو ابن الله.

الإمام الباقلاني

يُعطي أبو بكر الباقلاني ثقة أعلى للإنجيل مما يُعطيه للتوراة. يُفرد في "كتاب التمهيد" فصلاً كاملاً للعقيدة المسيحية عن الثالوث الأقدس وألوهية المسيح [٤٣]. وهو يهدف إلى تفسير نصوص الإنجيل تفسيراً مُغايراً لتفسير المسيحيين. يحاول بعمله هذا إثبات أن المسيحيين أعطوا تفاسير خاطئة وغير مبررة لكتابهم المقدس (الإنجيل). للوصول لهدفه يطبق الباقلاني أسلوباً منطقياً بحتاً مشابهاً لأسلوب الغزالي الى حدٍّ بعيد. أما بالنسبة لكتاب اليهود (التوراة) فإن الباقلاني يربط تغيير التوراة بزوال مملكة إسرائيل، وهو يعتقد أن التغيير الذي طرأ عليها سببه أخطاء في تفسير التوراة وفي نسخه وفي ترجمته من لغة لأخرى.

الإمام محمد عبده

يُعتبر محمد عبده من كبار علماء الدين المصريين في القرن التاسع عشر. كان مصلحاً يدعو إلى تجديد الفكر الإسلامي مع بقائه مخلصاً وملتزماً بتعاليم الإسلام الجوهرية. يتبنى عبده في تفسيره للقرآن وجهة نظر مشابهة للرازي. يُوضح في تفسيره لسورة البقرة (الآية ١٥٩) أن الكتب المقدسة (التوراة والإنجيل) إنتشرت إنتشاراً واسعاً مما يجعل تحريف نصوصها مستحيلاً. من ناحية أخرى يلوم عبده اليهود فقط على تحريف كتابهم، ويُلاحظ بأنهم كما غيّروا

---

[٤٣] الباقلاني، التمهيد، فصل ٨، ص ٧٥-١٠٣.

التوراة بقصد رفض الإيمان بالمسيح كنبي مُرسل فإنهم أساءوا تفسير فقرات أخرى من التوراة (كما في نبوءة إشعيا) التي تتحدث عن مجيء محمد.[44]

في تفسيره لسورة البقرة (الآية ١٨٥) يقارن عبده النصوص الإسلامية بالنصوص اليهودية والمسيحية، ويقول إن نور الحقيقة أكثر إشعاعاً في القرآن مما هو في التوراة والإنجيل. يذكر الإنجيل أن تلاميذ المسيح أنفسهم وجدوا صعوبة في فهم تعاليم سيّدهم ومع ذلك، يضيف عبده، فإننا نؤمن بأصالة الإنجيل [45]. يعطي المُصلح المصري تشابهاً آخر عندما يفسر سورة آل عمران (الآية ٧٨) مضيفاً بأن بعض اليهود في المدينة كانوا يتلون كتابات البشر كما لو كانت من الكتب المقدسة لكي يخدعوا الناس بشأن محمد. ثم يذهب الى حدّ القول بأن هذا ما يفعله اليوم بعض المسلمين عندما يحرفون القرآن بتفاسيرهم الفاسدة محاولين تبرير رفضهم للإصلاح الديني والاجتماعي من جهة، وتبرير بِدعهم من جهة أخرى. يدعي بعض هؤلاء الناس بأنهم بغير حاجة للتعرف على دينهم من خلال القرآن بل يكفيهم الاعتماد على أقوال العلماء.[46]

النظرية الثانية: تحريف النص

يعتقد الفريق الثاني من علماء الدين المسلمين أن نصوص الكتب المقدسة نفسها قد شابها التغيير وليس المعنى فقط. يضم

---

[44] محمد عبده، تفسير المنار، مجلّد ٢، ص ٤٨-٥٠. لا يذكر المؤلف أي نص من سفر إشعيا النبي لدعم كلامه.

[45] محمد عبده، تفسير المنار، مجلّد ٢، ص ١٥٩-١٦٠.

[46] محمد عبده، تفسير المنار، مجلّد ٣، ص ٣٤٣. لا يذكر المؤلف أي جماعة من المبدعين على وجه التحديد.

هذا الفريق إبن حزم (١٠٦٤/٤٥٦) والجويني (١٠٨٥/٤٧٨) وإلى حد ما إبن تيميــة (١٣٢٨/٧٢٨) الــذي يتخـذ موقفــاً متوسطاً. يتبع اليوم أغلب المدافعين عن الإسلام هذه المدرسة الفكرية وهم غير مدركين لحقيقة كون أفكارهم بشأن تحريف الكتب المقدسة تعكس اتجاهاً واحداً فقط في الدين الإسلامي.

إبن تيمية

في كتابه "الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح" يتطــرق إبن تيمية لموضوع التواتر في نقل التوراة والإنجيل فيقــول: "يحتج المسلمون بأن التوراة والإنجيل التي لدى أهل الكتــاب اليوم لم تتناقل انتقالاً متواتراً مـــن موســـى والمســـيح، إذ أن تسلسل النقل قُطع عند تدمير القدس وطرد الإسرائيليين مــن المدينة" [٤٧]. ويدعي المؤلف أن التوراة الحالية كتبها شــخص واحد هو عزرا الذي لم يكن نبياً وكان هدفه تقوية سلطته على اليهود. يبدو أن إبن تيمية يشير هنا إلى واقعتــين مختلفتــين ذكرهما خطأً على أنهما نفــس الواقعــة: اكتشــاف "كتــاب الشريعة" (الذي قد يكون مخطوطة قديمة لسفر التثنية) خـــلال حكم يوشيًا الملك سنة ٦٢٢ قبل المــيلاد (٢ ملــوك ٢٢: ٨-١٣) من جهة، وقراءة عزرا لكتاب شريعة موسى سنة ٥١٥ قبل الميلاد من جهة أخرى (نحميا ٨: ١-٨).

عند دراسته للأناجيل الأربعة يقول إبن تيمية بـــأن هــذه الأناجيل قد كُتبت بعد سنين عديدة من صعود المســيح إلــى السماء، وأن مرقس ولوقا لم يكونا من تلاميذ المسيح أصــلاً وأن لوقا لم يرَ المسيح بتاتاً. يضيف إبن تيمية فيقول إن الخطأ محتمل في النقل إذا جرى من قبل اثنين أو ثلاثــة أو أربعــة

[٤٧] إبن تيمية، الجواب، ص ٢١٥. الشواهد لهذا المرجع مترجمة عــن الطبعــة الإنجليزية.

أشخاص خاصة وأنهم كانوا قد أخطأوا بشأن يسوع المسيح نفسه إذ زعموا بأنه مات مقتولاً على الصليب.[48]

على الرغم من وجود اثني عشر تلميذاً للمسيح كلّفهم بأن يشهدوا له فإن إبن تيمية يعتبر أن هذا العدد غير كافٍ لضمان نقل تعاليمه بصورة دقيقة. لم يكن عدد التلاميذ أكثر من اثني عشر على حدّ تعبيره [49]. ويرى المؤلف أن التغيير حصل في الأناجيل بعد فترة قصيرة من كتابتها، عندما كانت النسخ محدودة العدد، واحدة، اثنتان أو أربع نسخ [50]. يضيف إبن تيمية بأن ألوهية المسيح ومصداقية الكتب المقدسة ورسولية التلاميذ هي أمور تعتمد على بعضها البعض، وهو يرى أن هذه العلاقات المتبادلة تشكل خللاً كبيراً يقوّض الإيمان المسيحي، ولهذا يجب أن يُقال للمسيحيين فيما يتعلق بهذا الأمر: "إنكم عاجزون عن إثبات كون المسيح هو الله إلا بالاعتماد على هذه الكتب، وليس بإمكانكم إثبات صحة هذه الكتب إلا بإثبات أن التلاميذ هم رسل الله المعصومون، ولا يمكنكم إثبات كونهم رسل الله إلا بإثبات أن المسيح هو الله". وهكذا يصبح موقف المسيحيين وكأنه في دائرة مفرغة [51]. ولابد هنا أن نذكر أن العلاقة بين مصداقية الرسول ومصداقية رسالته تنطبق على الإسلام بقدر انطباقها على المسيحية. إن نبوة محمد تستند إلى إعجاز القرآن، وإعجاز القرآن يستند إلى أمية الرسول. في الحقيقة إن الله هو وحده الذي يعطي الدليل على كون كلامه جديراً بالثقة وهذا يستدعي ألا نكتفي بعقولنا

---

[48] إبن تيمية، الجواب، ص ٢١٦.

[49] إبن تيمية، الجواب، ص ٢٣٦.

[50] إبن تيمية، الجواب، ص ٢٣٩.

[51] إبن تيمية، الجواب، ص ٢١٦.

لفهم كلمة الله بل لابد وأن تكون قلوبنا أيضاً مليئة بالثقة بالله وبصدقه.

بالرغم من كل هذه الانتقادات للكتاب المقدس يعتبر إبن تيمية أن مدى التغيير فيه محدود ولا يقوّض الاعتماد عليه: "يعتقد بعض المسلمين أن عدد نصوص الكتابين المقدسين (الإنجيل والتوراة) التي تعرضت للتغيير هو قليل جداً وهذا هو الرأي الأرجح... في الواقع تحتوي التوراة والإنجيل لدى أهل الكتاب على حكم الله ولو أن بعض النصوص قد أصابها التغيير والتبديل (راجع المائدة ٤١-٤٣)" [٥٢]. إذاً يقول إبن تيمية بأن نص الإنجيل لم يتعرض لتغيير جوهري إلا أن دين المسيح قد تم تغييره من قبل الكنيسة. هذا يعني أن الكنيسة لم تعد مؤسسة على تعاليم المسيح بل على مفاهيم رؤسائها. وينحي إبن تيمية باللائمة على المجامع الكنسية الأولى التي وضعت العقيدة المسيحية المتعلقة مثلاً بالثالوث المقدس وألوهية المسيح، وهو ينتقد المسيحيين لإيمانهم بعصمة رجال هذه المجامع [٥٣]. ويضيف بأن ممارسات المسيحيين تُظهر كم ابتعدت الكنيسة عن دين المسيح، ويدرج لائحة بما لا سند له في الإنجيل من هذه الممارسات كالتوجه نحو الشرق عند الصلاة، وأكل لحم الخنزير، واستخدام الأيقونات في الكنائس، والصيام الخمسيني، والرهبنة، والاحتفال بعيد الميلاد وعيد الغطاس وعيد الصليب، واستبدال الختان بالمعمودية [٥٤]. لا شك أن بعض هذه الممارسات التي تتمسك بها الكنائس الشرقية بصورة خاصة لا تستند إلى نصوص واضحة في الأناجيل. والسؤال هو: هل تتعارض هذه الممارسات مع

---

[٥٢] إبن تيمية، الجواب، ص ٢٢٥-٢٢٦.
[٥٣] إبن تيمية، الجواب، ص ٢١٧، ٢١٩، ٢٢١.
[٥٤] إبن تيمية، الجواب، ص ٢٢٩، ٢٣٣، ٢٣٧، ٢٥٣.

تعاليم المسيح؟ في الإسلام أيضاً هنالك الكثير من المعتقدات والطقوس التي لا أساس لها في القرآن أو الحديث (مثل الاحتفال بعيد المولد النبوي الشريف وإحياء ذكرى عاشوراء).

الجويني وابن حزم: تقاربات وتناقضات

يُظهر عنوان رسالة الجويني محتواها الهجومي العنيف "شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل". أعرب الجويني عن رفضه للتواتر في تناقل التوراة قبل قرنين ونصف من ابن تيمية.[٥٥]

يحاول المؤلفون المسلمون إثبات آرائهم بالرجوع إلى نصوص الكتاب المقدس. يشير الجويني إلى الاختلافات بين التوراة التي يستخدمها اليهود (أي النص العبري) والتوراة التي كان يستخدمها المسيحيون في عصره (أي النص اليوناني المعروف بالترجمة السبعينية)[٥٦]. أحد الأمثلة التي يذكرها الجويني هو طول الحقبة الزمنية من آدم إلى تارح (أبو إبراهيم) التي تختلف بين النص العبري والترجمة اليونانية (تكوين ١١: ١٠-٢٦).[٥٧]

ألّف إبن حزم كتاب "الفصل في الملل والأهواء والنحل" عالج فيه تاريخ الأديان. أدرج في هذا الكتاب التناقضات

---

[٥٥] الجويني، شفاء، ص ٤٤-٤٦.

[٥٦] الترجمة السبعينية هي الترجمة اليونانية للعهد القديم (التوراة) التي كانت واسعة الانتشار في عصر الكنيسة الأولى. إستندت الترجمات القديمة للعهد القديم إلى هذه الترجمة. أما اليوم فترجمات الكتاب المقدس تستند إلى النصوص الأصلية أي النص العبري بالنسبة للعهد القديم والنص اليوناني بالنسبة للعهد الجديد (الإنجيل).

[٥٧] الجويني، شفاء، ص ٥٠-٥٦.

العديدة بين التوراة والتاريخ (مثلاً دامت عبودية شعب إسرائيل في مصر ٤٠٠ سنة بحسب تكوين ١٥: ١٣ بينما دامت ٤٣٠ سنة بحسب خروج ١٢: ٤٠). ذكر تناقضات أخرى بين التوراة والجغرافيا (مثلاً موقع الأنهار الأربعة الخارجة من جنة عدن؛ تكوين ٢: ١٠-١٤)، وبين التوراة والعقل (مثلاً خلق الله آدم على صورته ومثاله؛ تكوين ١: ٢٦-٢٧)، وبين ما جاء في التوراة عن تصرّف الأنبياء والأخلاقيات (مثلاً سُكر نوح؛ تكوين ٩: ٢٠-٢٣). أما التناقضات الصارخة فهي التي وقعت بين التوراة والقرآن.[٥٨]

عند قراءتنا للأناجيل نجد أحياناً أنها تختلف في سردها لوقائع الحادثة نفسها. يرى بعض المسلمين في هذا الإختلاف تناقضاً واضحاً فأسلوبهم في التفسير يعتمد على العقلانية والحرفية القصوى وهو يقودهم إلى إيجاد اختلافات عديدة في النصوص. يُعطي الجويني خمسة أمثلة على هذه الاختلافات: سلسلة نسب السيد المسيح [٥٩]، إنكار بطرس ليسوع [٦٠]، دخول يسوع مدينة القدس [٦١]، موقف اللصّين من يسوع على الصليب [٦٢]، والأحداث التي تلت موت المسيح مباشرة.[٦٣]

وابن حزم أيضاً يعتبر الأناجيل مليئة بالتناقضات. كيف يمكن للمسيح الذي يؤمن المسيحيون بأنه إبن الله أن يُجرَّب من قبل إبليس؟ كيف يُمكن للمسيح أن يقول إنه لم يأتِ لينقض

---

[٥٨] إبن حزم، فِصَل، مجلد ١، جزء ١، ص ٩٨-٢٢٤.

[٥٩] الجويني، شفاء، ص ٥٨-٦٦. راجع متى ١ :١-١٧؛ لوقا ٣: ٢٣-٣٨.

[٦٠] الجويني، شفاء، ص ٦٨-٧٢. راجع مرقس ١٤: ٦٦-٧٢؛ لوقا ٢٢: ٥٤-٦٠.

[٦١] الجويني، شفاء، ص ٧٢-٧٤. راجع متى ٢١: ١-١٧؛ مرقس ١١: ١-٥.

[٦٢] الجويني، شفاء، ص ٧٤-٧٦. راجع متى ٢٧: ٣٩-٤٤؛ لوقا ٢٣: ٣٩-٤٣.

[٦٣] الجويني، شفاء، ص ٧٦-٨٠. راجع متى ٢٧: ٥١-٥٣.

الشريعة (متى ٥: ١٧) علماً بأنه حرّم الطلاق ووضع حداً لشريعة العين بالعين والسن وبالسن (متى ٥: ٣١-٣٢، ٣٨-٤٢)؟ كيف يطلب المسيح من الناس ألاّ ينشروا خبر معجزاته في الوقت الذي يُقصد بالمعجزات أن تشهد لمكانة أنبياء الله وتقود الناس لاتباعهم (متى ٨: ٤؛ ١٢: ١٥-١٦)؟ ويضيف إبن حزم أن المسيح لم يقل عن نفسه أنه أكثر من إنسان (يوحنا ٢٠: ١٧) ومع ذلك فإن تلاميذه جعلوه الله. إنه مستحيل عقلاً الاعتقاد أن الله هو نفسه إبن الإنسان كما يصف المسيح نفسه، أو أنه إبن الله وإبن الإنسان معاً، أو أن الله وُلد من إنسان، أي من مريم العذراء.[٦٤]

والسؤال الذي يطرح نفسه بنفسه هو: كيف يفسّر إبن حزم القرآن والحديث عندما يتحدثان بايجابية عن التوراة والإنجيل؟ يشكك إبن حزم في صحة الحديث الذي يُورد إيمان محمد بأصالة التوراة، وعلى العكس من ذلك فإنه يؤمن بصحة الأحاديث التي تتهم اليهود والنصارى بالعبث بكتبهم المقدسة. ينظر إلى النصوص القرآنية التي تصف التوراة والإنجيل بأنهما [هُدًى ونُورٌ] جاء القرآن ليصدقهما (المائدة ٤٤، ٤٦) بأنها تشير إلى الكتب المقدسة قبل تحريفها. والنصوص القرآنية التي تدعو اليهود والنصارى للتمسك بكتبهم المقدسة (المائدة ٤٣، ٤٧) ينظر إليها على أنها دعوة للإيمان بمحمد الذي ذُكرت رسالته في هذه الكتب. ويختم إبن حزم كلامه بقوله إن تعليم القرآن لا يترك لنا مجالاً للشك بشأن تحريف التوراة والإنجيل، إلا أنه لا يعتبر أنهما قد حُرّفا في كل أجزائهما. إن الله أراد أن تُحفظ بعض الأجزاء من هذه الكتب المقدسة لتكون دليلاً ضد اليهود والنصارى. وعلينا ألا نسأل

---

[٦٤] إبن حزم، فِصَل، مجلد ١، جزء ٢، ص ١-٦٩.

الله عن أفعاله لأن الله غير مُطالب بتبرير أفعاله كما يقول القرآن: [لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ] (الأنبياء ٢٣؛ راجع الرعد ٤١).[٦٥]

الخلاصة

يعتقد المسلمون بأن عدم إيمان اليهود والمسيحيين بنبوّة محمد، رغم أن كتبهم المقدسة أشارت إليه، يعود إلى أن هذه الكتب قد حرّفت عن عمد أو غير عمد وبطريقة أو بأخرى. رأى محمد عبده أن رفض اليهود الإقرار بنبوّة محمد سبقه رفضهم للمسيح. والواقع أن المسيح نفسه انتقد اليهود لإساءة فهمهم للتوراة إلا أنه لم يشكك في أصالة نص التوراة (مرقس ٧: ٨-١٣). وعلى هذا الأساس فإن المسيحيين يقرّون بأصالة التوراة ويعتبرونها جزءاً لا يتجزأ من كتبهم المقدسة. على نقيض ذلك لا يضم كتاب المسلمين (أي القرآن) أياً من التوراة أو الإنجيل رغم إقراره بكليهما. فلو كانت التوراة أو الإنجيل جزءاً من كتاب المسلمين لكان المسلمون في وضع يتيح لهم مقارنة تعاليم هذه الكتب بتعاليم القرآن بقصد الوصول إلى استنتاجاتهم الشخصية.

أصبح الإعتقاد بأن الإنجيل قد حُرّف واسع الانتشار في المجتمعات الإسلامية ولو أن أغلب المسلمين لم تُتح لهم فرصة النظر فيه ودراسته. لقد استخلص بعض علماء المسلمين، مثل الرازي ومحمد عبده، بالاستناد إلى حجج دينية وتاريخية بأن تحريف المعنى فقط يمكن أن يكون قد حصل لا تحريف النص. وهم أقرّوا بأصالة التوراة والإنجيل، وإن انتقدوا اليهود والمسيحيين على سوء فهم بعض نصوص هذه الكتب. أشار هؤلاء العلماء بشكل خاص إلى النصوص

---

[٦٥] إبن حزم، فِصَل، مجلد ١، جزء ٢، ص ٢١١-٢١٥.

المتعلقة بمجيء محمد. علينا بالطبع النظر بتمعن في هـذه الأمور وسيحاول الفصل التالي الإجابة على من اتهم نصوص التوراة والإنجيل بالتحريف.

الفصل الخامس

الجواب على تهمة تحريف التوراة والإنجيل

إن اتهام التوراة والإنجيل بوقوع تحريف في نصوصهما هو بدون أساس حقيقي وفيه خلل كبير. سنناقش في هذا الفصل أربعة أنواع من الحجج لتفنيد الاتهام بتحريف نصوص الكتب المقدسة:

١)حُجج لاهوتية: كلام الله لابد أن يعكس صفات الله.

٢)حُجج علمية: المخطوطات تُعطي البرهان على أن الكتب المقدسة موثوق بها.

٣)حُجج منطقية: تحريف الكتب المقدسة لا يُعقل.

٤)حُجج كتابية: الكتب المقدسة يجب أن تُقرأ كما أُريد لها.

كلام الله لابد أن يعكس صفات الله

يوضّح الرازي أن تحريف نصوص الكتب المقدسة لا يتفق مع صفات الله لأن كلام الله لابد أن يُظهر من هو الله. بما أن الله صادق وجدير بالثقة، لذا لا يمكن أن يُحرَّف كلامه بحيث يصبح غير جدير بالثقة. هذا المبدأ الأساسي تكرر عدة مرات في القرآن: [وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ] (الأنعام ٣٤)، [لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ] (يونس ٦٤)، [لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ] (الكهف ٢٧). أعلن الله كلمته وهو الذي يضمن الحفاظ عليها من كل تغيير: [إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ]

(الحِجر ٩) [٦٦]. يؤكّد الكتاب المقدس أيضاً على هذا المبدأ. قد جاء في سفر المزامير (او الزبّور): "كلامك يا رب ثابت في السماوات إلى الأبد" (مزمور ١١٩: ٨٩). وأعلن يسوع المسيح أن كلمة الله لا يمكن تبديلها: "ولكنَّ زوال السماء والأرض أسهل من أن تسقط نقطة واحدة من الشريعة" (لوقا ١٦: ١٧)، وفي آية اخرى وصف المسيح كلام الله في الإنجيل بأنه كلامه وتعهد بالحفاظ على سلامته من أي تغيير: "السماء والأرض تزولان وكلامي لن يزول" (متى ٢٤: ٣٥).

إن قبول الاتهام بأن نصوص التوراة والإنجيل قد حُرِّفت يعني في الحقيقة أن الله قد عجز عن الوفاء بوعده بإيصال كلمته إلى البشرية بأمان، وهذا لا يتفق مع قدرته المطلقة التي هي من صفاته الذاتية. إن سمح الله بتحريف التوراة والإنجيل علينا أن نتساءل لماذا بادر الله بإعلان كلمته مع علمه المسبق بأنها لن تُنقل بشكل سليم، هل يُعقل ذلك؟ هل يتفق ذلك مع حكمة الله؟

إن تحريف الكتب المقدسة لا يتعارض مع صدق وقدرة وحكمة الله فحسب بل مع أمانته أيضاً. الله أمين وحافظ لعهده (تثنية ٧: ٩) وهو يُعلن بجلاله أنه يضمن فعالية كلمته:

> [لأَنَّهُ كَمَا يَنْزِلُ الْمَطَرُ وَالثَّلْجُ مِنَ السَّمَاءِ وَلاَ يَرْجِعَانِ إِلَى هُنَاكَ بَلْ يُرْوِيَانِ الأَرْضَ وَيَجْعَلاَنِهَا تَلِدُ وَتُنْبِتُ وَتُعْطِي زَرْعاً لِلزَّارِعِ وَخُبْزاً لِلآكِلِ

---

[٦٦] كلمة "الذكر" تُستخدم للدلالة على القرآن وكذلك التوراة (راجع سورة الأنبياء ٤٨، ٥٠، ١٠٥). يستشهد إبن تيمية بسورة الحِجر (آية ٩) فيقول إن الله حافظ وأمين لكلامه ليس فقط في حفظ نص الكتاب وإنما في تفسيره (إبن تيمية، الجواب، ص ٢٣٨). هذا الأمر منطقي إذ ما الفائدة من سلامة النص دون سلامة المعنى ؟

[11] هَكَذَا تَكُونُ كَلِمَتِي الَّتِي تَخْرُجُ مِنْ فَمِي. لاَ تَرْجِعُ إِلَيَّ فَارِغَةً بَلْ تَعْمَلُ مَا سُرِرْتُ بِهِ وَتَنْجَحُ فِي مَا أَرْسَلْتُهَا لَهُ] (إشعيا ٥٥: ١٠-١١)

هل تكون كلمة الله مثمرة وفعّالة لو لم يحفظها الله من التغيير؟ الله أمين لكلمته كما ولشعبه. أعلن لهم كلمته لكي يعرفوا الحق، وقد وعد المسيح تلاميذه بأنه سيرشدهم إلى الحق كلّه (يوحنا١٦: ١٣). بالتأكيد سيكون الله مُضللاً لشعبه لو سمح لكلمته بأن يُعبث بها. لو أنه سمح لكلمته في التوراة أو في الإنجيل بأن تُحرّف ما الذي يضمن أنه لم يسمح لكلمته في القرآن أن تُحرّف على حد سواء؟ ماذا يمكن أن يقال في هذا الحال عن أمانته وحفظه لعهده؟

البرهان من المخطوطات

الدليل المادي والعلمي على عدم تحريف التوراة والإنجيل يكمن في المخطوطات. دراسة هذه المخطوطات تؤكد سلامة الكتاب المقدس من التحريف. إن وجود العدد الكبير من المخطوطات مكّن العلماء من إثبات أن نصوص الكتاب المقدس قد تم نقلها بدقة تثير الإعجاب. في القرن الرابع عشر كتب إبن تيمية أنه من الضروري جمع وتدقيق كل مخطوطة متوفرة لإثبات أصالة الكتاب المقدس. هذا لم يكن ممكناً في ذلك الوقت حيث كانت المخطوطات منتشرة في بقع العالم [٦٧]. لكن الأمر يختلف تماماً في الوقت الحاضر حيث أتيحت للعلماء وسائل وفرص لم يسبق لها مثيل للاتصال ببعضهم البعض ومقارنة بحوثهم. يتفق علماء المخطوطات- بغض النظر عن دينهم- على أن الكتاب المقدس قد تم نقله وإيصاله

---

[٦٧] إبن تيمية، الجواب، ص ٢٢٦، ٢٣٠، ٢٤٠.

إلينا بدقة متناهية، وأن درجة الاختلاف في النصوص لا يمكن أن تثير أي تساؤل جدّي بشأن سلامة الكتاب المقدس.[٦٨]

يرجع تاريخ بعض المخطوطات اليونانية للكتاب المقدس بعهديه القديم (أي التوراة) والجديد (أي الإنجيل) إلى ما قبل ظهور الإسلام. يعود تاريخ مخطوطة سيناء المحفوظة في المتحف البريطاني بلندن ومخطوطة الفاتيكان المحفوظة في مكتبة الفاتيكان إلى القرن الرابع الميلادي فيما تعود مخطوطة الإسكندرية المحفوظة أيضاً في المتحف البريطاني إلى القرن الخامس الميلادي. تُظهر مقارنة هذه المخطوطات بمخطوطات أحدث ترجع إلى ما بعد ظهور الإسلام بأنه لم يجرِ تغيير التوراة ولا الإنجيل نتيجة لعدم قبول اليهود والمسيحيين الإيمان بنبوة محمد. يوجد اليوم العديد من الترجمات الحديثة للكتاب المقدس وهي تستند إلى نفس المخطوطات العبرية (للعهد القديم) واليونانية (للعهد الجديد). إن تنوع هذه الترجمات يساعدنا على فهم كلمة الله بشكل أفضل، إذ أن لكل ترجمة ميزاتها. إن ترجمة كلمة الله في كل عصر ضروري لفهمها حيث أن لغات البشر تُمثل واقعاً حيّاً يتطور مع الناس ويتغير بمرور الزمان واختلاف المكان.

في الوقت الحاضر إستطاع العلماء الذين تخصصوا في دراسة مخطوطات الكتاب المقدس تقديم الدليل المادي القاطع

---

[٦٨] لا يوجد أي كتاب من كتب العصور القديمة تحدى الزمن مثل الكتاب المقدس. مثلاً كتاب "حرب الغال" ليوليوس قيصر الذي كتبه في القرن الأول قبل الميلاد وصلنا بواسطة عشرة مخطوطات أقدمها يعود للقرن التاسع الميلادي. عاش المؤرخ اليوناني ثوفيديدس في القرن الخامس قبل الميلاد وأقدم المخطوطات لكتابه "تاريخ حرب البيلوبونيز" تعود للقرن التاسع الميلادي. ونفس الشيء ينطبق على كتاب "التاريخ" للمؤرخ اليوناني العظيم هيرودوت. في الوقت الحاضر لا يشك أي عالم من علماء تاريخ المخطوطات في أصالة هذه الأعمال، وإن الأدلّة الكتابية على أصالة الكتاب المقدس أكثر أهمية مما لتلك الأعمال.

على تواتر الكتاب المقدس أي نقله المتتابع. رأى الرازي بالرغم من اعتقاده بتواتر التوراة أن اليهود قد غيروا العقاب الشرعي للزنى من الموت رجماً إلى الجلد دون الموت. وقد رأينا في الفصل الثالث أن الحديث لا يسند هذا الرأي. على الرغم من عدم تنفيذ اليهود حدّ الزنى كما جاء في التوراة (أي القتل) فإنهم لم يُغيروا نص التوراة بشأنه [٦٩]. ومن الجدير بالذكر أن جميع مخطوطات التوراة تفرض عقوبة الموت على خطيئة الزنى (لاويين ٢٠: ١٠؛ تثنية ٢٢: ٢٢). على عكس ذلك إن آية الرجم المتعلقة بحدّ الزنى في الإسلام لا توجد في القرآن بل في الحديث. بالرغم من أنها تشكل جزءاً من الوحي القرآني فإنها لم تُحفظ في القرآن! [٧٠]

التحريف غير معقول

أشار محمد عبده كما رأينا إلى أن الانتشار الواسع للكتب المقدسة جعل التلاعب في نصوصها غير ممكن من أي كان، وأن أي محاولة سيكون مصيرها الفشل لأسباب عملية. إضافة لذلك فإن محاولة كهذه لابد وأن تُكتشف وتُستنكر بسبب العداوة بين اليهود والمسيحيين، فلو حاولت أي جماعة تغيير كتابها فإن الجماعة الأخرى ستشجبها لا محال. تحريف

---

[٦٩] بخاري، مناقب ٢٧: ٢/٧١٥/٣٦٧٨. راجع نص هذا الحديث في الفصل الثالث (حاشية رقم ٢٧).

[٧٠] كلمة "الحدّ" هي الكلمة العربية للعقاب القانوني حسب الشريعة الإسلامية. حدّ الزنى في النص القرآني الراهن هو مائة جلدة لكل من الزاني والزانية (النور ٢). ولكن جاء في الحديث أن هذا الحدّ قد نُسخ واستُبدل بآية الرجم التي تقتضي قتل الزاني والزانية بالرجم (مسلم، حدود ٤: ٢/٧٣٤/٤٥١٣). يُشير الحديث أيضاً إلى سورتين ناقصتين في القرآن، الأولى "كنا نشبهها في الطول والشدّة ببراءة" (أي سورة التوبة) والثانية "كنا نشبهها بإحدى المسبّحات" (أي سورة الحديد والحشر والصف والجمعة والتغابن). من السورة الثانية (المفقودة) حُفظت آيتان نجدهما في سورة الصف الآية ٢ وسورة بني إسرائيل الآية ١٣ (راجع مسلم، زكاة ٤٠: ١/٤١١/٢٤٦٦).

نصوص الكتب المقدسة كان عملاً مستحيلاً، ليس بسبب انتشارها الواسع فحسب ولكن لكونها قد تُرجمت منذ البداية إلى لغات عديدة مختلفة. في عهد السيد المسيح كانت أسفار العهد القديم (أي التوراة) متوفرة باللغة اليونانية من خلال الترجمة السبعينية، وفي نهاية القرن الثالث كانت معظم أجزاء العهد الجديد (أي الإنجيل) قد تُرجمت إلى اللغات اللاتينية والسريانية والقبطية. وفي القرن الثاني كانت الكتابات المسيحية تقتبس من أسفار العهد الجديد بكثرة.

أخيراً على المرء أن يتساءل: ما الذي دفع أهل الكتاب لتحريف كتبهم المقدسة؟ هل يُعقل أن تقوم أي جماعة مؤمنة بتحريف ما تحترمه وتعزّه أكثر من أي شيء آخر؟

الكتب المقدسة يجب أن تُقرأ كما أُريد لها

إن الكثير من الاعتراضات التي يثيرها بعض المسلمين حول أصالة التوراة والإنجيل تنبع من قراءتهم العقلانية والحرفية لهذه النصوص. إلا أن هاتين الطريقتين لا تصلحان لتفسير كلام الله سواء في الكتاب المقدس أو في القرآن. في الواقع إن الأسلوب العقلاني لتفسير كلام الله لا يتفق لا مع تعاليم المسيحية ولا مع تعاليم الإسلام.

بما أن الله سبحانه وتعالى أسمى بكثير من مخلوقاته فإن وحيه لا يُمكن أن يُقيّم بمعايير بشرية. إن كثيراً من الأشياء المذكورة في القرآن تبدو غير منطقية تماماً. المعجزات هي مثل من الأمثلة العديدة على ذلك: مثل رواية الناس الذين ناموا في الكهف لمدة ٣٠٩ سنين (الكهف ٢٥)، وحديث الملك سليمان إلى النمل والهدهد (النمل ١٨-٢٢). معنى "الإيمان" بحسب الاتجاه السائد في الدين الإسلامي هو التصديق بالله وليس بالضرورة إدراك من هو. كذلك يعني "الإسلام"

الخضوع لله والتسليم له كلياً بما فيه عقولنا وإرادتنا. إن هـذه العقيدة الإسلامية، التي لا تعتمد على المنطق البشـري فـي تفسير كلام الله، تتفق كلياً مع العقيدة المسيحية، فالإنجيـل – خلافاً للقرآن– هو ليس وحي الله لإعـلان إرادتـه للبشـرية فحسب بل إنه إظهار الله لذاته. بما أن محور الكتب المقدسـة هو الله نفسه فإن رسالتها بالضرورة أبعد من متنـاول عقـل الإنسان. على الذين يحاولون فهم الكتب المقدسة ألا يعتمـدوا بالدرجة الأولى على أنفسـهم، لأن المفسـر الأول والأخيـر للكتب المقدسة لابدّ وأن يكون الله نفسه الذي أوحاها. فالكتاب المقدس هو التسجيل المدوّن لإعلان الله لذاته في تاريخ شعب إسرائيل وفي حياة السيد المسيح.

إذاً إنه من غير المناسب أبداً أن نقرأ كلمة الله لا بالطريقة العقلانية ولا بالطريقة الحرفية. عندما يتحدث القرآن مثلاً عن جلوس الله على العرش (الأنفال ٥٤؛ يونس ٣؛ الرعد ٢؛ طه ٥)، أو عن يد الله (آل عمران ٧٣؛ الفـتح ١٠؛ الحديـد ٢٩) فإن معظم المسلمين لا يأخذون هذه التعابير بمعناها الظاهري أو الحرفي. كذلك إن القـراءة الحرفيـة للتـوراة والإنجيـل تتعارض مع طبيعة هذه الكتب لا سيما وأن الكتاب المقـدس– خلافاً للقرآن– هو مجموعة أنواع مختلفة مـن الأسـفار (أو الكتب). نجد في هذه الأسفار عدة أنـواع أدبيـة (تاريخيـة، شعرية، شرعية، تعليمية، إلخ). ولهذا لابد من تفسير كل نص بحسب خاصيته الأدبية وأسلوب كتابته.

على سبيل المثال يجب أن نتجنب إعطاء تفسير حرفي أو علمي لنص رمزي أو شعري أو رؤيوي، فسفر الرؤيا (آخر أسفار العهد الجديد) مليء بالأرقام والصور الرمزية التي لابد من تفسيرها بالمعنى المجازي. ولو أخذنا نصاً تاريخياً فلـيس بالضرورة أن ما يرويه علينا أن نقوم بـه. عنـدما تخبرنـا

التوراة عن الخطايا التي ارتكبها بعض الأنبياء من البديهي أن الهدف من ذلك ليس تشويه سمعتهم ولا اعتبار تلك الأفعال أمثلة يُحتذى بها. سجلت التوراة تلك الخطايا لأنها وقعت فعلاً لا للطعن برسل الله. إن رفض إخفاء الحقيقة رغم بشاعتها وكونها مشينة للشخص المعني يؤكد أصالة الكتاب المقدس. يوصل لنا الكتاب المقدس الحق الإلهي والحقيقة التاريخية كما هي. ففي المثال السابق ذكره يوضّح لنا حقيقة هامة وهي أن وقوع الأنبياء في الخطيئة يُظهر أن الشرّ مغروس بعمق في الطبيعة البشرية. والكتاب المقدس يُخبرنا عن ذلك ليدفعنا لا للإحباط المعنوي أو الخلقي أو الروحي بل ليقودنا إلى التوبة، كما اقتيد داوود النبي، وإلى الوثوق برحمة الله وحده لخلاص نفوسنا (راجع مزمور ٥١؛ ٢ صموئيل ١٢).

بحسب العقيدة الإسلامية أوحى الله كلامه في "كتاب": التوراة، الزبور، الإنجيل وأخيراً في القرآن. أما الأنبياء فهم رسل الله الذين يتكلمون باسمه، أؤتمن بعضهم بكتاب ليوصله إلى قومه. وعلى هذا الأساس فإن القرآن هو كلام الله ومحمد رسوله الذي نقل كلامه إلى العرب ثم إلى البشرية جمعاء. في المسيحية، وكما لاحظنا في الفصل الأول، ليست الأمور مطابقة لما هي عليه في الإسلام. يختلف المفهوم المسيحي للوحي عن المفهوم الإسلامي اختلافاً جذرياً. في الوقت الذي يمثل فيه الإنجيل كلمة الله بشكلها المكتوب فإن السيد المسيح، الذي يُسميه القرآن "كلمة الله" (آل عمران ٣٩، ٤٥؛ النساء ١٧١)، هو كلمة الله الذي ظهر بالشكل البشري بهيئة إنسان: [**فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللَّهَ. ... وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَداً وَحَلَّ بَيْنَنَا**] (يوحنا ١، ١٤). تشهد كلمة الله المكتوبة في التوراة والإنجيل للسيد المسيح [**فَإِنَّ**

شَهَادَةَ يَسُوعَ هِيَ رُوحُ النُّبُوَّةِ] (رؤيا ١٩: ١٠) وهكذا فإن المسيح هو كلمة الله المتجسد بإنسان.

إذاً المسيح هو رسول الله ونبيه وهو وحي الله للبشرية. والإنجيل قبل أن يكون كتاباً هو، كما تعني الكلمة في اللغة اليونانية، "البشارة" (او الخبر السّار) التي أعلنها المسيح والتي أودعها إلى تلاميذه الإثني عشر ليبلغوها بعده إلى الناس كافة. هكذا فإن بشارة يسوع المسيح، أي رسالته، مدونة في الأناجيل الأربعة وكذلك في باقي أسفار العهد الجديد. وتُسلّط الأناجيل الأربعة الضوء على شخص المسيح ورسالته من أربع زوايا مختلفة ولكن غير متعارضة. ليس المقصود من هذه الأناجيل أن تكون سرداً تاريخياً كاملاً أو سيَراً تفصيلية شاملة أو تدويناً دقيقاً للأحداث وفق تسلسل وقوعها الزمني. إن فيها رسالة محورها المسيح والأسلوب الذي دُونت به هذه الرسالة يهدف إلى إبراز سمات معينة للسيد المسيح ورسالته. بمعنى آخر إن المسيح هو البؤرة التي تتركز فيها جميع أحداث الوحي منذ آدم والذي بلغ ذروته في مجيئه.

كون المسيح كلمة الله المتجسد يجعل دوره في المسيحية مشابهاً لدور القرآن في الإسلام. كون محمد رسول الله يجعل موقعه في الإسلام مشابهاً لموقع رسل المسيح خاصةً أولئك الذين دونوا الأناجيل وبشّروا به. أوحى الله بكلمته لمحمد مثلما أوحاها لرسل المسيح الذين دوّنوها في الأناجيل المقدسة. ما جعل هؤلاء الناس أنبياءً ليس كما افترض إبن تيمية كونهم يصفون المسيح في الأناجيل بالله المتجسد، في الحقيقة إن الله هو الذي اختار هؤلاء الرجال ليكونوا رسله. كما لاحظ إبن تيمية أن بعض كتّاب العهد الجديد (مثل مرقس ولوقا ويعقوب) لم يكونوا من تلاميذ السيد المسيح الاثني

عشر[٧١]، ولم يكونوا جميعاً كما كان بولس الرسول مدركين بأنهم منقادون من قبل الله لتدوين كلمته (اتسالونيكي ٢: ١٣) [مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ نَحْنُ أَيْضاً نَشْكُرُ اللهَ بِلاَ انْقِطَاعٍ، لأَنَّكُمْ إِذْ تَسَلَّمْتُمْ مِنَّا كَلِمَةَ خَبَرٍ مِنَ اللهِ، قَبِلْتُمُوهَا لاَ كَكَلِمَةِ أُنَاسٍ، بَلْ كَمَا هِيَ بِالْحَقِيقَةِ كَكَلِمَةِ اللهِ، الَّتِي تَعْمَلُ أَيْضاً فِيكُمْ أَنْتُمُ الْمُؤْمِنِينَ]. ومع ذلك فإن الله قاد عملية الوحي من أولها إلى آخرها لإيصال كلمته إلى البشر من خلال هؤلاء الناس بدون أي تحريف لها.

لا شك أن وحي الله في المسيحية يختلف عما يتوقعه المسلمون. ولكن من نحن كي نسأل الله عن الطريقة التي يقررها لإظهار كلمته؟ من نحن لنقول بأنه من غير المناسب أن تكتب التوراة والإنجيل بطريقة تختلف عن القرآن؟ على المسيحيين والمسلمين أن يعترفوا أن لله الحق في إظهار كلمته بالشكل الذي يستحسنه، ونتيجة لذلك يجب على المسلمين ألاّ يقرأوا الكتاب المقدس بمنظور إسلامي كما يجب على المسيحيين ألاّ يقرأوا القرآن الكريم بمنظور مسيحي.

إن إرادة الله بإيصال كلمته إلى البشرية جمعاء تتطلب أن يجعل الناس يتعرفون على نص هذه الكلمة ويفسرونها بإخلاص. وتعني أمانة الله لكلمته ولشعبه أنه هو الذي قاد شعب إسرائيل ومن ثم المسيحيين للتعرّف على كلمته ومعرفة فحواها. إنه قادهم للتمييز والفصل بين الكتابات الدينية العديدة في ذلك الزمان وبين الكتب التي أوحاها أي التوراة والإنجيل. إذا لم يكن الأمر متروكاً لليهود والمسيحيين للحكم بسلطانهم الخاص فيما إذا كانت تلك هي كلمة الله أم لا، ولكن بقوة روح الله (أي روح القدس) تعرفوا على صحة ما أُوحي به.

---

[٧١] ابن تيمية، الجواب، ص ٢١٦.

باختصار لو قبلنا هذا المفهوم المسيحي للوحي لا يُمكننا أن نقرأ الكتاب المقدس بطريقة حرفية كما فعل إبن حزم أو الجويني، ولا بالطريقة العقلانية التي اتبعها كل من الباقلاني والغزالي. ما نحتاج إليه بدلاً من ذلك هو دراسة موضوعية شاملة وبذهن منفتح لكتب الله المقدسة متنورين بروح الله الذي أوحى تلك الكتب. هذا الأسلوب الخالي من الأحكام المسبقة سيؤدي بالتأكيد إلى اضمحلال معظم الاختلافات الظاهرة. فمثلاً يمكن تفسير بعض الاختلافات الرقمية في العهد القديم على أنها اخطاء نسخية ليس لها أهمية بارزة. أما بالنسبة للصعوبات الأخرى التي قد لا نرى لها حلاً مقنعاً فسببها على الأرجح هو جهلنا للواقع التاريخي. هذه الصعوبات في التفسير تدفعنا إلى بحثٍ أوسع وتواضعٍ أكثر وثقة أعمق في المؤلف الإلهي للكتب المقدسة. لا يجوز أن نسمح للصعوبات بتشويش نظرتنا إلى رسالة الكتاب المقدسة الواضحة وإلا فإننا سنجد أنفسنا في موضع غير قادرين فيه على التمييز بين الغث والسمين.

كلمة الختام

طالما أن نصوص التوراة والإنجيل لم تُحرَّف، فهل ياترى أساء اليهود والمسيحيون تفسيرها؟ بعبارة أخرى هل ما جاء في التوراة والإنجيل هو نفسه ما في القرآن؟ هل تنبأت هذه الكتب بمحمد؟ كما رأينا سابقاً لا يورد القرآن أية إشارة إلى نص محدد لا في التوراة ولا في الإنجيل لدعم الإدعاء بأن هذه الكتب أخبرت بمجيء محمد. في الحقيقة لا يذكر الكتاب المقدس محمداً لا بشكل ولا بآخر.

وفي الختام نقول إن عقيدة تحريف التوراة والإنجيل كما اختلقها العلماء المسلمون ليس لها أساس متين في القرآن،

وليس لها أي أساس في الكتاب. إنها نشأت بشكل أساسي لتبرير الاختلافات بين رسالة الكتاب ورسالة القرآن، ونتيجة لتطبيق المفهوم الإسلامي للوحي على الكتاب المقدس. وتظهر هذه العقيدة بشكليها (أي التحريف اللفظي والتحريف المعنوي) سوء فهم المسلمين لجوهر الإنجيل باعتباره رسالة الله الخلاصية كما أنها توضح رفضهم لهوية السيد المسيح باعتباره كلمة الله المتجسد بإنسان لفداء البشر من سلطان الموت وعبودية الخطيئة. وإنه ليسعدنا اليوم أن نرى العديد من المسلمين في شتى البلاد أكثر تفهماً لرسالة الإنجيل وأكثر معرفةً بمفهوم الوحي في العقيدة المسيحية وأكثر استعداداً لقبول صحة وأصالة الكتاب المقدس من سابقيهم.

مراجع الكتاب

* إبن تيمية، تقي الدين أحمد: الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح

* إبن حزم: كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل (القاهرة: دار الفكر، ١٩٨٠، مجلدان)

* إبن حنبل: مسند (موسوعة الحديث الشريف على قرص CD، القاهرة، صخر، ١٩٩٥)

* إبن ماجه: سنن (Liechtenstein: Thesaurus Islamicus Foundation, ١٤٢١/٢٠٠٠)

* أبو داوود: سنن (Liechtenstein: Thesaurus Islamicus Foundation, ١٤٢١/٢٠٠٠, ٢ vols.)

* الباقلاني، ابو بكر محمد: كتاب التمهيد (Beirut: Librairie Orientale, ١٩٥٧, ed. R. McCarthy)

* البخاري: صحيح (Liechtenstein: Thesaurus Islamicus Foundation, ١٤٢١/٢٠٠٠, ٣ vols.)

* الجويني، أبو المعالي: شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل (بيروت: دار المشرق، ١٩٦٨)

* *Textes Apologétiques de Guwayni* (Beirut: Dar al-Mashriq, ١٩٦٨, Arabic-French edn, ed. Michel Allard)

* الدارمي: سنن (موسوعة الحديث الشريف على قرص CD، القاهرة، صخر، ١٩٩٥)

* الترمذي سنن (Liechtenstein: Thesaurus Islamicus Foundation, ١٤٢١/٢٠٠٠, ٢ vols.)

* الرازي، فخر الدين: التفسير الكبير (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١١/١٩٩٠، ١٦ مجلد)

* شحرور، محمد: الكتاب والقرآن. قراءة معاصرة (دمشق: دار الأهالي، ١٩٩٢، الطبعة الخامسة)

* الطبري، أبو جعفر محمد: جامع البيان عن تاويل القرآن (القاهرة: مكتبة حلبي، ١٩٦٨-١٩٧٦)

* عبده، محمد: تفسير المنار (القاهرة: دار المنار، الطبعة الرابعة، ١٩٥٤، ١٢ مجلد)

* الغزالي، أبوحامد: الردّ الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل

* الفاروقي، إسماعيل *Christian Mission and Islamic Da'wa* (Leicester: Islamic Foundation, ١٩٨٢)

* مسلم صحيح (Liechtenstein: Thesaurus Islamicus Foundation, ١٤٢١/٢٠٠٠, ٢ vols.)

* *A Muslim Theologian's Response to Christianity* (Delmar, NY: Caravan, ١٩٨٤, tr. Thomas Michel)

* Réfutation excellente de la divinité de Jésus-Christ d'après les évangiles (Paris: Presses Universitaires de France, Arabic-French edn, tr. and ed. Robert Chidiac)

إني أساند من كل قلبي
الحوار المسيحي-الإسلامي،
وأود أن أرى العديد من الناس
منخرطين في حوار عادل ومثمر
على كافة المستويات